من تراث الغزالي

إلجام العوام عن علم الكلام

تأليف

أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

(٤٥٠هـ - ٥٠٥هـ)

مع رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام لأبي الحسن الأشعري

تحقيق وتعليق

الأستاذ / صفوت جودة أحمد

طبعة محققة ومنقحة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الناشر

دار الحرم للتراث

٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة

ت - ٥٩١٦٠٢١

- الكتاب: إلجام العوام عن علم الكلام
- المؤلف: ابى حامد بن محمد الغزالى
- الناشر: دار الحرم للتراث
- العنوان: ٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبة ٥٩١٦٠٢١
- الطبعة الأولى: مايو ٢٠٠٤
- رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٤/٧٢٣١
- الترقيم الدولى: 3 - 09 - 6038 - 977

الطبعة الأولى
٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم للكتاب

بقلم الدكتور / أحمد حجازى السقا

الله تعالى هو الخالق للعالم وحده، وهو الذى يحيى ويميت. وهو يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقص. والتوحيد والتنزيه أمران لازمان لله، لا ينفكان عنه. فإذا اعترف مسلم بالتوحيد وسكت عن التنزيه؛ فإنه لا يكون مسلما. وإذا اعترف بالتنزيه وسكت عن التوحيد؛ فإنه لا يكون مسلما. والتوحيد والتنزيه معا يأتيان فى القرآن الكريم. ففى سورة الإخلاص: ﴿ **قل: هو الله أحد** ﴾ وهذا هو التوحيد، وفى نفس السورة: ﴿ **ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ أى مثلا. وهذا هو التنزيه. وفى كتاب التوراة نجد التوحيد والتنزيه كما فى القرآن. ففى الأصحاح الثانى والثلاثين من سِفر التثنية: «أنا أنا هو وليس إله معى. أنا أميت وإنى أُحيى» وفى الأصحاح الثالث والثلاثين من نفس السفر: «ليس مثل الله» ولأن عقول البشر لا تقدر على فهم ذات الله كما ينبغى لجلاله؛ استخدم الله لغة البشر فى التعريف بنفسه، وكلمهم على قدر عقولهم. فقد قال عن نفسه: إنه يغضب ويمكر وينسى وماشابه ذلك. ليس لأنه يغضب على الحقيقة، ويمكر على الحقيقة وينسى على الحقيقة – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – ولكن ليقرب ذاته إلى عقول البشر بنفس أسلوبهم وتفكيرهم عن أنفسهم. وذلك لكى يقدروا على تصور ذاته. وقد عبر عن نفسه بأن له يدا وعينا وأذنا وما شابه ذلك؛ ليس لأنه جسم –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا– ولكن ليقرب ذاته إلى عقول البشر. أما هو –عز وجل– فليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وفى القرآن عن ذات الله وصفاته؛ محكم ومتشابه. وبيانه هكذا:

﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ مُحكم. له معنى واحد وهو نفى المثل والشبه والتجسيم عن الله.

﴿ **يد الله فـوق أيديهم** ﴾ متشابه. وهو يحتمل معنيين اثنين ١- اليد الجسمية ٢- والكناية عن القدرة. والمتفق مع المحكم هو المعنى الكنائى؛ فيكون هو مراد الله تعالى. وبعد تعيين المعنى المراد يجب على المسلم أن يقول: والله عبر عن نفسه بلغة بنى آدم؛ ليفهموا مراده. هذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة. ولكن السلفيين الحنابلة يأخذون بظواهر النصوص فيقولون لله يد. لا نعرف لها مثلا. وهكذا. ويلزم على الأخذ بظواهر النصوص أن يقولوا: لله نسيان. ولا نعرف له مثلا. ولله مكر. ولا نعرف له مثلا. وهكذا. والأخذ بالظواهر مردود؛ لقوله تعالى: ﴿ **لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾ وشبهه. وهذا الكتاب يبين عقائد أهل السنة والجماعة. وهى الفرقة الناجية، ويرد على أهل الزيغ والضلال من الكرامية وأيضاً يرد على الحنابلة، وغيرهما. ومحقق الكتاب وهو الأستاذ الشيخ صفوت جودة أحمد. من علماء الأزهر الشريف النابهين، والمخلصين لدينهم والمحبين للعلم والعلماء. وهدفه هو الحق للحق من أجل رضا الله والدار الآخرة. نفع الله به، وأمد فى حياته، ووفقه إلى نصرة الإسلام والمسلمين.

د/ أحمد حجازى السقا
من كلية أصول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

الحمد لله رب العالمين. (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) والصلاة والسلام على النبى الأمى الكريم وعلى أصحابه الكرام الطيبين، وعلى من تبعهم بالخير إلى يوم الدين.

أما بعد،،

فقد روجع هذا الكتاب الصغير الحجم على جمله نسخ قديمة وعلى النسخ المطبوعة سنة ١٣٢٨ فأصبحت هذه النسخة أصح النسخ الموجوده وهو كتاب فى علم الكلام. وبين مؤلفه أن علم الكلام من أشرف العلوم وأجلها، وذلك لأنه يبحث عن الله تعالى وصفاته، ويقيم الأدلة على وحدانيته وقدرته، وقد عنى المسلمون به عناية فائقة وكتبوا فيه كتباً كثيرة.

وإن علم الكلام ببراهينه وخلافاته لم يكن معروفاً فى عهد النبوة والرسالة ولا فى عصر الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين بل كان المسلمون فى هذه الفترة من الزمان يستمدون عقيدتهم فى توحيد الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق به من القرآن الكريم والسنة النبوية الغراء. وما أشكل عليهم رجعوا فيه إلى من يزيل شكوكهم عما غم عليهم ولكن عندما كثرت الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً ودخل فى الدين الاسلامى كثير من أهل الديانات الممسوخة المشوهة مثل المجوسية واليهودية والمزدكية والعيسوية التى تجعل من المسيح إلهاً أو ابنا للإله، أخذوا يثيرون الشبه والشكوك حول هذا الدين ويخلطون الحق بالباطل والخير بالشر وينشرون الخرافات بين الناس وكان كثير منهم لم يدخلوا هذا الدين عن عقيدة بل

اتخذوا من الاسلام سلما للوصول إلى أغراضهم وأهدافهم من أجل القضاء عليه. ومـــا حـــدث من فتن بين المسلمين فى معركتى الجمل وصفين إنما كان نتيجة طبيعية لذلك.

ولقد انتهز هؤلاء المغرضون الفرصة فأخذوا يندسون بين المسلمين يبثون سمومهم كما أخذوا يخطئون ويصوبون، حتى كانت تلك الفرقة التى انقسم المسلمون على أثرها إلى خوارج وشيعة وغيرهما إلى سنية ومعتزلة وكل فرقة من هؤلاء اختلفت مع بعضها ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1] ثم إن هذا العلم وإن كان فى أول أمره محدود الدائرة إلا أنه أخذ بعد ذلك ينمو شيئا فشيئا حتى نضج وكمل وأصبح على الوضع الذى هو عليه الآن.

رأى السلف فى علم الكلام

قال ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ فى كتاب جامع بيان العلم وفضله.

نهى السلف -رحمهم الله- عن حق الجدل فى الله جل ثناؤه فى صفاته وأسمائه، وأما الفقهاء فأجمعوا على الجدال فيه، وليس الاعتقادات كذلك لأن الله عز وجل لا يوصف عند الجماعة: أهل السنة إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، أو أجمعت الأمة عليه وليس كمثله شيء فيدرك بقياس أو إنعام تطر وقد نهينا عن التفكير فى الله، وأمرنا بالتفكير فى خلقه الدال عليه.

عن مصعب بن عبدالله الزبدى قال: كان مالك بن أنس يقول: الكلام فى الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو الكلام فى رأى جهم، والقدر وما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل وقال أيضا: فى الكتاب والسنة.

وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب كلام أبداً ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل.

١- سورة المؤمنون (٢٣) آية (٥٣) وسورة الروم (٣٠) آية (٣٢)

وقـال مـالك: أرأيت إن جـاءه من هو أجـدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد...؟

وقد جاء عن شيخ الإسلام الهروى المتوفى سنة ٤٨١هـ.. وأخرج عن طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه وهم يتراجعون فى القدر فخرج مغضباً حتى وقف عليهم. فقال: بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به.

وأخرج عن أبى هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى أحمر وجهه ثم قال: أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا.

وتحدث الإمام الغزالى عن علم الكلام غير مرة فى كثير من كتبه وتحدث فى الإحياء حق الآراء فى كونه حلالا أم حراماً فقال: وإلى التحريم ذهب الإمام الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث والسلف.

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله: سمعت الشافعى رضى الله عنه يوما ناظر حفصاً الفرد وكان من متكلمى المعتزلة يقول: لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشىء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن علم الكلام الذى ذمه الإمام الشافعى وغيره من الأئمة إنما هو علم الكلام المشتمل على مذاهب المخالفين الذين أدخلوا فى قضايا الدين أشياء خالفت ماكان يعتقده المتقدمون من الصحابة والتابعين وجمهور الأمة وكانت عناوين كتبهم تحت لفظ علم الكلام.

وأما علم الكلام الذى بدأ التأليف فيه أهل السنة من السلف الصالح إلى يوم الناس هذا فلم ينكره أحد من أئمة المسلمين بل أوجبوا الأخذ به فقد ابتدأ أبو الحسن الأشعرى، وأبو منصور الماتريدى، ومن سلك طريقهما فى التأليف على مذهب أهل السلف الصالح فى فهم العقيدة فقد جعلوا القرآن الكريم المنهل العذب الذى يلجأون إليه فى تعرف عقائدهم، وما اشتبه عليهم فى مسائل العقيدة قد حاولوا فهمه بما توحيه أساليب اللغة ولا تنكره العقول، فإن تعذر عليهم فهم شىء من ذلك توقفوا وفوضوا.

وبالجملة فقد سلكوا طريقا وسطا جمع بين النقل والعقل، ثم أتى بعد ذلك الإمام الغزالى الذى أوجب تعلم علم الكلام والمنطق، ثم توسع فى ذلك الإمام الرازى والآمدى وسار المتكلمون الذين ألفوا كتبهم لنصرة مذهب أهل السنة والجماعة إلى اليوم، وعلى أساس هذا فقد اتضح أن التأليف فى هذا العلم إنما كان لنصرة المذهب الحق وتأييده وإبطال حجج المخالفين والرد عليهم.

رسالـــــة

فى

استحسان الخوض فى علم الكلام لأبى الحسن الأشعرى

والحقيقة أن هناك عددا كبيرا من علماء المسلمين اشتغلوا بعلم الكلام ومسائله ومن هؤلاء العلماء المجوزين «أبو الحسن الأشعرى» الذى وضع رسالة فى استحسان الخوض فى علم الكلام. رد فيها على دعوى الحنابلة الذين ذموا علم الكلام ونهوا عن الخوض فيه.

ونظراً للأهمية البالغة لرسالة الأشعرى التى تعبر بصدق عن مذهب الأشعرى ودفاعه عن المتكلمين فإننا نورد هذه الرسالة بتمامها.

نص الرسالة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين أنبأنا الشيخ الإمام جمال الدين أبو الحسن بن ابراهيم بن عبدالله القرشى إجازة بخطه قال: أنبأ الفقيه الإمام العالم فخر الدين أبو المعالى محمد بن أبى الفرج بن محمد بن بركة الموصلى قراءة عليه وأنا أسمع فى مسجده بسوق السلطان ببغداد يوم الثلاثاء الثامن من شوال سنة ست مائة – قيل له قرأت على الشيخ الإمام الصدوق أبى منصور المبارك بن عبدالله بن محمد البغدادى يوم عرضك برباطه المعروف برباط البربهيرية شرقى مدينة السلام من سنة ثلاث وسبعين وخمس مائة فأقر به[١].

حدثنا الشيخ الامام الحافظ جمال الدين أبو الفضل عبد الرحيم أحمد بن

١– نشره يوسف مكادثى اليسوعى بيروت ١٩٥٣ ضمن كتاب اللمع للأشعرى – نقلته عن كتاب علم الكلام تعريفه وعوامل نشأته للدكتور عامر النجار طبعة دار المعارف ١٩٨٦م الطبعة الأولى.

محمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن الاخوة سنة اثنتين وأربعين وخمس مائه أنبأنا الشيخ أبو الفضل محمد بن يحيى الناتلى بمازنران فى منزله بقراءتى عليه أنبأ أبو نصر عبد الكريم بن محمد بن هارون الشيرازى أنبأ على بن رستم حدثنا على بن مهدى قال سمعت الشيخ الأوحد شيخ المشايخ أبا الحسن على بن إسماعيل الأشعرى رضى الله عنه يقول :

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبى وآله الطيبين وأصحابه الأئمة المنتخبين.

أما بعد فإن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس مالهم وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين ومالوا إلى التخفيف والتقليد وطعنوا على من فتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال وزعموا أن الكلام فى الحركة والسكون والجسم والعرض والألوان والأكوان والجزء والطفرة وصفات البارى عز وجل بدعة وضلالة.

وقالوا لو كان ذلك هدى وإرشاداً لتكلم فيه النبى ﷺ وخلفاؤه وأصحابه (قالوا) ولأن النبى ﷺ لم يمت حتى تكلم فى كل ما يحتاج إليه من أمور الدين وبينه بيانا شافيا ولم يترك بعده لأحد مثالا فيما للمسلمين إليه حاجة من أمور دينهم وما يقربهم إلى الله عز وجل ويباعدهم عن سخطه.

فلما لم يرووا عنه الكلام فى شىء مما ذكرناه علمنا أن الكلام بدعة والبحث عنه ضلالة لأنه لو كان خيراً لما فات النبى ﷺ وأصحابه ولتكلموا فيه. (قالوا) ولأنه ليس يخلو ذلك من وجهين إما أن يكونوا علموه فسكتوا عليه، أو لم يعلموه بل جهلوه. فإن كانوا علموه ولم يتكلموا فيه وسعنا أيضا نحن السكوت عنه كما وسعهم السكوت عنه ووسعنا ترك الخوض (فيه) كما وسعهم ترك الخوض فيه ولأنه لو كان من الدين ما وسعهم السكوت عنه. وإن كانوا لم يعلموه وسعنا جهله

كـمـا وسع أولئك جـهله لأنه لوكـان من الدين لم يجـهلوه . فـعلى كـلا الوجـهين الكلام فـيه بدعـة والخوض فيه ضلالة فهذه جملة ما احتجوا به فى ترك النظر فى الأصول .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه الجواب عنه من ثلاثة أوجه – أحدها قلب السؤال عليهم بأن يقال النبى ﷺ وآله وسلم لم يقل أيضا «أنه من بحث عن ذلك وتكلم فيه فاجعلوه مبتدعاً ضالاً . فقد لزمكم أن تكونوا مبتدعة ضلالا إذ قد تكلمت فى شيء لم يتكلم فيه النبى ﷺ وضللتم من النبى ﷺ .

والجواب الثانى أن يقال لهم أن النبى ﷺ وآله وسلم لم يجهل شيئا مما ذكرتموه من الكلام فى الجسم والعرض والحركة والسكون والجزء والطفرة وإن لم يتكلم فى كل واحد من ذلك معينا وكذلك الفقهاء والعلماء من الصحابة غير أن هذه الأشياء التى ذكرتموها معينة أصولها موجودة فى القرآن والسنة جملة غير مفصلة .

أما الحركة والسكون والكلام فيهما فأصلهما موجود فى القرآن وهما يدلان على التوحيد وكذلك الاجتماع والافتراق . قال الله تعالى مخبراً عن خليله ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه فى قصة أفول الكوكب والشمس والقمر وتحريكها من مكان إلى مكان ما دل على أن ربه عز وجل لا يجوز عليه شيء من ذلك وأن من جاز عليه الأفوال والانتقال من مكان إلى مكان فليس بإله .

وأما الكلام فى أصول التوحيد فمأخوذ أيضا من الكتاب، قال الله تعالى :
﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[1]

وهذا الكلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له وكلام المتكلمين

١- سورة الأنبياء (٢١) آية (٢٢)

فى الحجاج فى التوحيد بالتمانع والتغالب فانما مرجعه إلى هذه الآية وقوله عز وجل ﴿ مـا اتخـذ الله من ولد ومـا كـان مـعـه من إله إذا لذهـب كل إله بما خلق ولعـلا بعضهم على بعض ﴾ إلى قوله عز وجل ﴿ **أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ** ﴾[1]

وكلام المتكلمين فى الحجاج فى توحيد الله إنما مرجعه إلى هذه الآيات التى ذكرناها وكذلك سـائر الكلام فـى تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مـأخوذ من القرآن .

فكذلك الكلام فى جواز البعث واستحالته الذى قد اختلف عقلاء العرب ومن قبلهم من غيرهم فيه حتى تعجبوا من جواز ذلك فقالوا « أ إذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » وقولهم « هيهات هيهات لما توعدون » وقولهم « من يحيى العظام وهى رميم »

وقـــوله تعـــالى : ﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ** ﴾[2] وفى نحو هذا الكلام منهم إنما ورد بالحجاج فى جواز البعث بعد الموت فى القرآن تأكيداً لجواز ذلك فى العقول وعلم نبيه ﷺ ولقنه الحجاج عليهم فى إنكارهم البـعـث من وجـهين على طائفـتين منهـم طائفـة أقـرت بالخلق الأول وأنكرت الثانى، وطائفة جحدت ذلك بقدم العالم فاحتج على المقر منها بالخلق الأول بقـوله ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾[3] وبقـوله ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ﴾[4] وبقوله ﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾[5] فنبههم

١- سورة الرعد (١٣) آية (١٦)

٢- سورة المؤمنون (٢٣) آية (٣٥)

٣- سورة يس (٣٦) آية (٧٩)

٤- سورة الروم (٣٠) آية (٢٧)

٥- سورة الأعراف (٧) آية (٢٩)

بهذه الآيات على أن من قدر أن يفعل فعلاً على غير مثال سابق فهو أقدر أن يفعل فعلا محدثا فهو أهون عليه فيما بينكم وتعارفكم. وأما البارى جل ثناؤه وتقدست أسماؤه فليس خلق شيء بأهون عليه من الآخر وقد قيل إن الهاء فى (عليه) إنما هى كناية للخلق بقدرته أن البعث والإعادة أهون على أحدكم وأخف عليه من ابتداء خلقه لأن ابتداء خلقه إنما يكون بالولادة والتربية وقطع السرة والقماط وخروج الأسنان وغير ذلك من الآيات الموجعة المؤلمة وإعادته إنما تكون دفعة واحدة ليس فيها من ذلك شيء فهى أهون عليه من ابتدائه فهذا ما احتج به على الطائفة المقرة بالخلق.

وأما الطائفة التى أنكرت الخلق الأول والثانى وقالت بقدم العالم فإنما دخلت عليهم شبهة بأن قالوا وجدنا الحياة رطبة حارة والموت بارداً يابسا وهو من طبع التراب فكيف يجوز أن يجمع بين الحياة والتراب والعظام النخرة، فيصير خلقا سويا والضدان لا يجتمعان فأنكروا البعث من هذه الجهة.

ولعمرى إن الضدين لا يجتمعان في محل واحد ولا فى جهة واحدة، ولا فى الموجود فى المحل ولكنه يصح وجودهما فى محلين على سبيل المجاورة فاحتج الله تعالى عليهم بأن قال ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ** ﴾[1] فردهم الله عز وجل فى ذلك إلى ما يعرفونه ويشاهدونه من خروج النار على حرها ويبسها من الشجر الأخضر على بردها ورطوبتها فجعل جواز النشأة الأولى دليلا على جواز النشأة الآخرة لأنها دليل على جواز مجاورة الحياة التراب والعظام النخرة فجعلها خلقا سويا وقال ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ** ﴾[2]

وأما ما يتكلم به المتكلمون من أن الحوادث أولا وردهم على الدهرية

١- سورة يس (٣٦) آية (٨٠)

٢- سورة الأنبياء (٢١) آية (١٠٤)

(القائلين) إنه لا حركة إلا   بلها حركة ولا يوم إلا وقبله يوم والكلام على من قال ما فى جزء إلا وله نصف لا إلى غاية فقد وجدنا أصل ذلك فى سنة رسول الله ﷺ حين قال : « لا عدوى ولا طيرة » فقال أعرابى فما بال الإبل كأنها الظباء تدخل فى الإبل الجرب فتجرب . فقال النبى ﷺ فمن أعدى الأول . فسكت الأعرابى لما أفهمه بالحجة المعقولة وكذلك نقول لمن زعم أنه لا حركة إلا وقبلها حركة لو كان الأمر هكذا لم تحدث منها واحدة لأن ما لا نهاية له لا حدث له .

وكذلك لما قال الرجل يا نبى الله إن امرأتى ولدت غلاما أسود وعرض بنفيه فقال النبى ﷺ . هل لك من إبل فقال : (نعم) قال : فما ألوانها قال (حمر) فقال رسول الله ﷺ هل فيها من أورق قال : (نعم) إن فيها أورق . قال : فأنى ذلك قال لعل عرقا نزعه فقال النبى ﷺ ولعل ولدك نزعه عرق فهذا ما علم الله نبيه من رد الشىء إلى شكله ونظيره وهو أصل لنا فى سائر ما نحكم به من الشبيه والنظير .

وبذلك نحتج على من قال إن الله تعالى وتقدس يشبه المخلوقات وهو جسم بأن نقول له لو كان يشبه شيئا من الأشياء لكان لا يخلو من أن يكون – يشبهه من كل جهاته وجب أن يكون محدثا مثله من حيث أشبهه لأن كل مشتبهين حكمهما واحد فيما اشتبها له ويستحيل أن يكون المحدث قديما والقديم محدثا وقد قال تعالى وتقدس ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾[2]

وأما الأصل بأن للجسم نهاية وأن الجزء لا ينقسم فقوله عز وجل اسمه ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾[3]

١- سورة الشورى (٤٢) آية (١١)

٢- سورة الإخلاص (١١٢) آية (٤)

٣- سورة يس (٣٦) آية (١٢)

ومجال إحصاء ما لا نهاية له ومحال أن يكون الشيء الواحد ينقسم لأن هذا يوجب أن يكونا شيئين وقد أخبر أن العدد وقع عليهما.

وأما الأصل فى أن المحدث يجب أن يتأتى له الفعل نحو قصده واختياره وتنتفى عنه كراهيته فقوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾[1] فلم يستطيعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون مع تمنيهم الولد فلا يكون مع كراهيته له فنبههم أن الخالق هو من يتأتى منه. المخلوقات على قصده.

وأما أصلنا فى المناقضة على الخصم فى النظر فمأخوذ من سنة سيدنا محمد ﷺ وذلك تعليم الله عز وجل إياه حين لقى الحبر السمين فقال له « نشدتك بالله هل تجد فيما أنزل الله تعالى من التوراة أن الله تعالى يبغض الحبر السمين فغضب الحبر حين عيره بذلك فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فقال الله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا ﴾[2] الآية فناقضه عن قرب. لأن التوراة شيء وموسى بشر وقد كان الحبر مقرا بأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى وكذلك ناقض الذين زعموا أن الله تعالى عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار فقال تعالى ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3] فناقضهم بذلك وحاجهم.

وأما أصلنا فى استدراك مغالطة الخصوم فمأخوذ من قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾[4] فإنها لما نزلت هذه

١- سورة الواقعة (٥٦) آية (٥٨، ٥٩)

٢- سورة الأنعام (٦) آية (٩١)

٣- سورة آل عمران (٣) آية (١٨٣)

٤- سورة الأنبياء (٢١) آية (٩٨، ٩٩، ١٠٠)

الآية بلغ ذلك عبدالله بن الزبعرى وكان جدلاً خصما فقال : خصمت محمداً ورب الكعبة . . فجاء إليه رسول الله ﷺ فقال يا محمد ألست تزعم أن عيسى وعزيراً والملائكة عبدوا . فسكت النبي ﷺ لا سكوت عيى ولا منقطع تعجبا من جهله لأنه ليس في الآية ما يوجب دخول عيسى وعزير والملائكة فيها لأنه قال ﴿ وما تعبدون ﴾ ولم يقل وكل ما تعبدون من دون الله .

وإنما أراد ابن الزبعرى مغالطة النبي ﷺ ليوهم قومه أنه قد حاجه فأنزل الله عز وجل ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ** ﴾[1] يعني من المعبودين « أولئك عنها مبعدون » فقرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك فضجوا عند ذلك لئلا يتبين انقطاعهم وغلطهم فقالوا ﴿ **أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ** ﴾[2] . يعنون عيسى فأنزل الله تعالى ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾[3]

وكل ما ذكرناه من الآي أو لم نذكره أصل وحجة لنا في الكلام فيما نذكره من تفصيل وإن لم تكن مسألة معينة في الكتاب والسنة لأن ما حدث تعيينها من المسائل العقليات في أيام النبي ﷺ والصحابة قد تكلموا فيه على نحو ما ذكرناه .

والجواب الثالث أن هذه المسائل التي سألوا عنها قد علمها رسول الله ﷺ ولم يجهل منها شيئا مفصلاً غير أنها لم تحدث في أيامه معينة فيتكلم فيها أو لا يتكلم فيها وإن كانت أصولها موجودة في القرآن والسنة وما حدث من شيء فيما له تعلق بالدين من جهة الشريعة فقد تكلموا فيه وبحثوا عنه وناظروا فيه وجادلوا وحاجوا كمسائل العول والجدات من مسائل الفرائض وغير ذلك من الأحكام

١- سورة الأنبياء (٢١) آية (١٠١)

٢- سورة الزخرف (٤٣) آية (٥٨)

٣- سورة الزخرف (٤٣) آية (٥٧ ، ٥٨)

وكالحرام والبائن والبتة وحبلك على غاربك وكالمسائل فى الحدود والطلاق مما يكثر ذكرها مما قد حدثت فى أيامهم ولم يجئ فى كل واحدة منها نص عن النبى ﷺ لأنه لو نص على جميع ذلك ما اختلفوا فيها وما بقى الخلاف إلى الآن.

وهذه المسائل وإن لم يكن فى كل واحدة منها نص عن رسول الله ﷺ فإنهم ردوها وقاسوا على ما فيه نص من كتاب الله تعالى والسنة واجتهادهم فهذه أحكام حوادث الفروع ردوها إلى أحكام الشريعة التى هى فروع لا تستدرك أحكامها إلا من جهة السمع والرسل فأما حوادث تحدث فى الأصول فى تعيين مسائل فينبغى لكل عاقل مسلم أن يرد حكمها إلى جملة الأصول المتفق عليها بالعقل والحس والبديهة وغير ذلك لأن حكم مسائل الشريعة التى طريقها السمع أن تكون مردودة إلى أصول الشرع التى طريقها السمع. وحكم مسائل العقليات والمحسوسات أن يرد كل شىء من ذلك إلى بابه ولا تختلط العقليات بالسمعيات ولا السمعيات بالعقليات فلو حدث فى أيام النبى ﷺ الكلام فى خلق القرآن وفى الجزء والطفرة بهذه الألفاظ لتكلم فيه وبينه كما بين سائر ما حدث فى أيامه من تعيين المسائل وتكلم فيها.

ثم قال :النبى ﷺ لم يصح عنه حديث فى أن – القرآن غير مخلوق أو هو مخلوق. فلو قلتم إنه غير مخلوق فإن قالوا قد قاله بعض الصحابة وبعض التابعين قيل لهم بأن الصحابى والتابعى مثل ما يلزمكم من أن يكون مبتدعاً ضالا إذ قال مالم يقله الرسول ﷺ . فإن قال قائل فانا أتوقف فى ذلك فلا أقول مخلوق ولا غير مخلوق قيل له فأنت فى توقفك ذلك مبتدع ضال لأن النبى ﷺ لم يقل إن حدثت هذه الحادثة بعدى توقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئا ولا قال: ضللوا وكفروا من قال بخلقه أو من قال بنفى خلقه.

وخبرونا لو قال قائل إن علم الله مخلوق أكنتم تتوقفون فيه أم لا فان قالوا لا

قيل لهم لم يقل النبي ﷺ ولا أصحابه في ذلك شيئا وكذلك لو قال هذا ربكم شبعان أو ريان أو مكتسي أو عريان أو مقرور أو صفراوي أو مرطوب أو جسم أو عرض أو يشم الريح أولا يشمها أو هل له أنف وقلب وكبد وطحال وهل يحج في كل سنة وهل يركب الخيل أو لا يركبها وهل يعتم أم لا ونحو ذلك من المسائل لكان ينبغي أن تسكت عنه لأن رسول الله ﷺ لم يتكلم في شيء من ذلك ولا أصحابه . أو كنت لا تسكت فكنت تبين بكلامك أن شيئا من ذلك لا يجوز على الله عز وجل وتقدس كذا وكذا بحجة كذا وكذا فإن قال قائل اسكت عنه ولا أجبه بشيء أو أهجره أو اقوم عنه أولا أسلم عليه أولا أعوده إذا مرض أو لا أشهد جنازته إذا مات قيل له فيلزمك أن تكون في جميع هذه الصيغ التي ذكرتها مبتدعا ضالاً لأن رسول الله ﷺ لم يقل: من سأل عن شيء من ذلك فاسكتوا عنه ولا قال . . لا تسلموا عليه ولا قوموا عنه ولا قال شيئا من ذلك فأنتم مبتدعة إذا فعلتم ذلك ويقال لهم ولم لم تسكتوا عمن قال بخلق القرآن ولم كفرتموه ولم يرد عن النبي ﷺ حديث صحيح في نفي خلقه وتكفير من قال بخلقه فان قالوا لأن أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال بنفي خلقه وتكفير من قال بخلقه قيل لهم ولم لم يسكت أحمد عن ذلك بل تكلم فيه فإن قالوا لأن عباس العنبري ووكيعا وعبد الرحمن بن مهدي وفلانا وفلانا قالوا إنه غير مخلوق ومن قال بأنه مخلوق فهو كافر قيل لهم ولم لم يسكت أولئك عما سكت عنه النبي ﷺ فإن قالوا: لأن عمرو بن دينار وسفيان بن عينية وجعفر بن محمد رضي الله عنهم وفلانا قالوا ليس بخالق ولا مخلوق قيل لهم ولم لم يسكت أولئك عن هذه المقالة ولم يقلها رسول الله ﷺ .

فإن أحادوا ذلك على الصحابة أو جماعة منهم كان ذلك مكابرة فإنه يقال لهم فلم يسكتوا عن ذلك ولم يتكلم فيه النبي ﷺ ولا قال « كفروا قائله » وإن قالوا

لا بد للعلماء من الكلام فى الحادثة ليعلم الجاهل حكمها قيل لهم هذا الذى أردنا منكم فلم منعتم الكلام فأنتم إذا شئتم تكلمتم حتى إذا انقطعتم قلتم نهينا عن الكلام وإن شيءتم قلدتم من كان قبلكم بلا حجة ولا بيان وهذه شهوة وتحكم.

ثم يقال لهم فالنبى ﷺ لم يتكلم فى النذور والوصايا ولا فى العتق ولا فى حساب المناسخات ولا صنف فيها كتابا كما صنعه مالك والثورى والشافعى وأبو حنيفة فيلزمكم أن يكونوا مبتدعة ضلالا إذ فعلوا ما لم يفعله النبى ﷺ وقالوا ما يقله نصا بعينه وصنفوا مالم يصنفه النبى ﷺ وقالوا بتكفير القائلين بخلق القرآن ولم يقله النبى ﷺ وفيما ذكرنا كفاية لكل عاقل معاند.

تجز والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

التعريف بالإمام الغزالى

مؤلف كتاب/ إلجام العوام

المولود: ٤٥٠هـ - ١٠٥٨م

المتوفى: ٥٠٥هـ - ١١١١م

مولده وأخبار نشأته:

هو أبو حامد: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى – كان والده رضى الله عنه يغزل الصوف ويبيعه فى دكانه بطوس، فلما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير وقال: إن لى لتأسفا عظيما على تعلم الخط، وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدىَّ هذين.

ونفذ الوصى الصالح ما أوصى به صاحبه فعلمهما الخط وأدبهما حتى فنى ذلك المال الذى خلفه لهما أبوهما، وتعذر على ذلك الصوفى القيام بقوتهما.

فقال لهما: اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من أهل التجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما ففعلا ذلك، وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما وكان الغزالى رضى الله عنه يحكى هذا ويقول:– طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله.

شيوخه:-

قرأ فى صباه طرفاً من الفقه ببلده طوس على أحمد بن محمد الذاذكانى، ثم سافر فى طلب العلم إلى جرجان لاستماع دروس الإمام أبى نصر الإسماعيلى،

وعلق عليه التعليقة، ثم رجع إلى طوس وأقبل على الاشتغال بهذه التعليقة ثلاث سنين حتى حفظها، ثم سافر إلى نيسابور، وتردد على دروس إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى.

نبوغه ومكانته العلمية:-

جد واجتهد فى الاشتغال والاستذكار والاستظهار حتى برع فى الفقه والأخلاق والجدل، وأصول الدين وأصول الفقه، والمنطق والحكمة والفلسفة، ونبغ فى مدة وجيزة حتى صار يشار إليه بالبنان، وصنف فى تلك العلوم على عهد أستاذه إمام الحرمين، ونقد الآراء الزائفة فى هذه العلوم، وتصدى للرد عليها.

طلبه للعلم ورحلاته:-

لما مات إمام الحرمين خرج الغزالى من نيسابور إلى المعسكر قاصداً الوزير نظام الملك الذى كان مجلسه مجتمع أهل العلم، وملاذ الأدباء فناظر الغزالى فى حضرته الأئمة العلماء، وظهر عليهم، فاعترفوا بفضله، وتلقاه نظام الملك بالتعظيم والتكريم، وولاه تدريس مدرسته ببغداد، وأمره بالتوجه إليها فقدم بغداد سنة ٤٨٤هـ بالنظامية فأعجب الناس بحسن كلامه، وفصاحة لسانه، وسمو خلقه، فأحبوه من قلوبهم وأقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير، ومكث مدة يدرس وينشر العلم والفتيا، عالى التربية، مسموع الكلمة مشهور الاسم، تضرب به الأمثال، وتشد إليه الرحال. ثم زهد فى تلك المظاهر فقصد إلى بيت الله الحرام للحج سنة ٤٨٨هـ واستناب أخاه فى التدريس فلما رجع توجه إلى الشام، فأقام بمدينة دمشق يشتغل بالعلم فى زاوية الجامع، ثم انتقل الى بيت المقدس، واجتهد فى العبادة وانقطع عن الناس، وتحرى الأماكن الخالية، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة وكان قد اعتزم السفر فيها إلى بلاد المغرب بحراً للاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش ولكنه عدل عن ذلك حين بلغه نعيه، فعاد إلى وطنه

طوس، واشتغل بالعلم والعبادة وتصنيف الكتب المفيدة.

وذكر الشيخ علاء الدين على بن الصيرفى. فى كتابه (زاد السالكين) أن القاضى أبا بكر بن العربى قال: رأيت الإمام الغزالى فى البرية وبيده عكاز وعليه مرقعة، وعلى عاتقه ركوة، وقد كنت رأيته ببغداد يحضر مجلس درسه نحو أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم قال: قد دنوت منه وسلمت عليه وقلت له يا إمام: أليس تدريس العلم ببغداد خير من هذا؟ قال: فنظر إلىَّ شزراً وقال: لما طلع بدر السعادة فى فلك الإرادة وجنحت شمس الوصول فى مغارب الأصول

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل

وعدت إلى تصحيح أول منزل

ونادت بى الأشواق مهلاً هذه

منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلاً دقيقا فلم أجد

لغزلى نساجاً فكسرت مغزلى

ثناء الأكابر عليه من مشايخه وممن عاصره وممن أتى بعده:-

قال السبكى فى جواب كتاب أبى العفيف المطرى وقد سأله عن الغزالى ما نصه: « وماذا يقول الإنسان وفضله واسمه قد طبق الأرض ومن خير كلامه عرف أنه فوق اسمه.

وقال محمد بن يحيى النيسابورى تلميذ الغزالى « لا يعرف الغزالى وفضله إلا من بلغ أو كاد أن يبلغ الكمال فى عقله ».

وقال الحافظ أبو طاهر السلفى رضى الله عنه: سمعت الفقهاء يقولون كان الجوينى - يعنى إمام الحرمين - يقول فى تلامذته إذ ناظروا التحقيق للخوافى والجربيات للغزالى والبيان لكيا الهراسى.

من كراماته:-

كثرت كرامات الإمام الغزالى وذاع صيتها وانتشرت سمعتها وتردد على ألسنة العارفين ذكرها قال أبو عبدالله محمد بن يحيى بن عبد المنعم العبدرى المؤذن: رأيت بالإسكندرية سنة خمسمائة فى أحد عشرة من المحرم فيما يرى النائم كأن الشمس طلعت من مغربها فعبر ذلك بعض المعبرين ببدعة تحدث فيهم، فبعد أيام وصلت المراكب بإحراق كتب الإمام الغزالى.

الباحثون عن الحقيقة فى نظر الغزالى:-

بحث الغزالى عن جميع الفرق فى عصره التى تنشد الحقيقة فوجدهم أربع فرق:-

١- المتكلمون:- الذين يدعون أنهم أهل الرأى والنظر

٢- الباطنية:- الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام.

٣- الفلاسفة:- وهم الذين يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤- الصوفية:- وهم الذين يزعمون أنهم خواص الحضرة وأهل المكاشفة والمشاهدة.

مصنفاته:-

شملت أكثر من فروع العلوم والمعرفة فى عصره مثل الفقه والأصول

والأخلاق والتصوف والفلسفة والمنطق وكان رحمه الله شديد الذكاء سديد النظر سليم الفطرة، حجيب الإدراك قوى الحافظة مرهف الأحاسيس بعيد الغور غواصا على المعانى الدقيقه معينا بالإشارات الرقيقة جامعاً بين علوم الظاهر والحقيقة مناظراً محجاجاً وغيثا ثجاحاً.

ونعرض لأهم مصنفاته بإيجاز كما يلى:-

(أ) كتب العقائد:-

١- الاقتصاد فى الاعتقاد.

٢- قواعد العقائد.

٣- عقيدة أهل السنة.

٤- إلجام العوام عن علم الكلام الذى (بين أيدينا الآن).

٥- الرسالة القدسية فى قواعد العقائد.

٦- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

٧- فضائح الباطنية وفضائل المستطريرية.

٨- القسطاس المستقيم.

٩- كيمياء السعادة.

١٠- المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى.

١١- فضائل القرآن وغيرها.

(ب) كتب الفقه والأصول ومنها:-

١- أسرار الحج فى الفقه الشافعى.

٢- الوسيط المحيط بأقطار البسيط.

٣- البسيط فى الفروع.

٤- المنخول فى الأصول.

٥- غاية الغوري فى مسائل الدور.

٦- الوجيز فى الفروع.

٧- المستصفى فى علم الأصول.

جـ- كتب الفلسفة والمنطق منها:

١- المنقذ من الضلال.

٢- معارج القدس فى مدارج معرفة النفس.

٣- شقائق العلوم لأهل المفهوم.

٤- تهافت الفلاسفة.

٥- محك النظر فى المنطق.

٦- معيار العلوم فى المنطق.

٧- كتاب المنتحل فى علم الجدل.

٨- رسالة الطير.

٩- المعارف العقلية والحكم الإلهية.

د - كتب الأخلاق والتصوف منها:

١- إحياء علوم الدين. ٢- آداب الصوفية.

٣- الرسالة اللدينة.
٤- منهاج العابدين.
٥- فاتحة العلوم.
٦- معراج السالكين.
٧- ميزان العمل.
٨ - الأدب فى الدين.
٩- رسالة أيها الولد.
١٠- جواهر القرآن ودرره.
١١- بداية الهداية وتهذيب النفس . الآداب الشرعية.
١٢- الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة.
١٣- مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب.
١٤- الترك المسبوك فى نصيحة الملوك.
١٥- الحكمة فى مخلوقات الله.

إنتقاله إلى الدار الآخرة:

فى كتاب الثبات عند الممات لابن الجوزى قال أحمد أخو الغزالى لما كان يوم الإثنين وقت الصبح توضأ أخى وصلى وقال: على بالكفن - فأشفاه وقبله ووضعه على عينيه وقال:

سمعا وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجليه، واستقبل القبلة، فإنتقل إلى رضوان الله تعالى، قبل الأسفار، طيب الثناء، أحلى منزلة من نجم السماء، لايكرهه إلا حاسد أو زنديق، ولايسومه بالسوء إلا من كان فى قلبه ريب أو حاد عن سواء الطريق.

وقال عنه فخر الدين ابن عساكر رضى الله عنه:

مضى إلى رحمه الله يوم الإثنين - الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس

وخمسمائة ، ودفن بظاهر قصبة طابران، والله يخصه بأنواع الكرامه فى أخراه، كما خصه بفنون العلم فى دنياه بمنه .

والله نسأل أن يمنحنا الهداية والتوفيق، وأن يجعلنا من خاصة أهل التوحيد حتى ينظمنا فى تعداد المخلصين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين

منفلوط فى ٢٦ربيع الأول١٤١٦هـ

٢٣ أغسطس ١٩٩٥م

صفوت جوده أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى تجلى لكافة عباده بصفاته وأسمائه، وتاهت عقول الطالبين فى بيداء كبريائه، وقص أجنحة الأفكار دون حمى عزته وتعالى بجلاله عن أن تدرك الافهام كنه حقيقته واستوفى قلوب أوليائه وخاصته واستغرق أرواحهم حتى احترقوا بنار محبته وبهتوا فى إشراق أنوار عظمته وخرست ألسنتهم عن الثناء على جمال حضرته إلا بما أسمعهم من أسمائه وصفاته وأنبأهم على لسان رسول الله محمد ﷺ خير خليقته وعلى أصحابه وعترته.

أما بعد

فقد سألتنى أرشدك الله عن الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال حيث اعتقدوا فى الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار وما يجرى مجراه مما أخذوه من ظواهر الأخبار وصورها وإنهم زعموا أن معتقدهم فيه معتقد السلف وأردت أن أشرح لك اعتقاد السلف وأن أبين ما يجب على عموم الخلق أن يعتقدوه فى هذه الأخبار وأكشف فيه الغطاء عن الحق وأميز ما يجب البحث عنه عما يجب الإمساك والكف من الخوض فيه فأجبتك إلى طلبتك متقربا إلى الله سبحانه وتعالى باظهار الحق الصريح من غير مداهنة ومراقبة جانب ومحافظة على تعصب لمذهب ذى مذهب فالحق أولى بالمراقبة والصدق والإنصاف أولى بالمحافظة عليه وأسأل الله التسديد والتوفيق وهو بإجابة داعية حقيق وها أنا أرتب الكتاب على ثلاثة أبواب: **باب** فى بيان حقيقة مذهب السلف فى هذه الأخبار **وباب** فى البرهان على أن الحق فيه مذهب السلف وأن من خالفهم فهو مبتدع **وباب** فى فصول متفرقة نافعة فى هذا الفن.

شرح اعتقاد السلف وبيان الوظائف السبعة

شرح اعتقاد السلف فى هذه الأخبار اعلم أن الحق الصريح الذى لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعنى مذهب الصحابة والتابعين وها أنا أورد بيانه وبيان برهانه.

– فأقول: حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور:–

– التقديس

– التصديق

– الاعتراف بالعجز

– السكوت

– الامساك

– الكف

– التسليم لأهل المعرفة

■ أما التقديس: فأعنى به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها.

■ وأما التصديق: فهو الإيمان بما قالهﷺ وأما الاعتراف بالعجز فهو أن يقر بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته وأن ذلك ليس من شانه وحرفته.

وأما السكوت فأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه ويعلم أن سؤاله عنه بدعة وأنه فى خوضه فيه مخاطر بدينه وأنه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر .

وأما الامساك فان لا يتصرف فى تلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتصريف والصيغة.

وأما الكف فان يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه.

وأما التسليم لأهله فان لا يعتقد إن ذلك إن خفى عليه لعجزه فقد خفى على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء فهذه سبع وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها على كل العوام لا ينبغى أن يظن بالسلف الخلاف فى شيء منها فلنشرحها وظيفة وظيفة إن شاء الله تعالى:

التقديس

معناه: أنه إذا سمع اليد والإصبع وقوله ﷺ أن الله خمر طينة آدم بيده[١]، وأن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن[٢] فينبغى أن يعلم أن اليد تطلق

١- اخبرنا معاذ بن معاذ العنبرى، أخبرنا سليمان التيمى، أخبرنا أبو عثمان النهدى عن سلمان الفارسى أن ابن مسعود قال:

إن الله تعالى لما خمر طينة آدم ضرب بيده فيه، فخرج كل طيب فى يمينه، وكل خبيث فى يده الأخرى، ثم خلط بينهما، فمن ثم يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى. وهذا أثر رواه ابن سعد فى طبقاته (١/١٢٧) وإسناد هذا الأثر صحيح ومتنه منكر، ولا تثبت بمثل هذا الأثر عقائد المسلمين، والظاهر أن الضارب هو الذى بعثه الله فاخذ من أديم الأرض كما مر فى الأثر قبل هذا بسند حق.

يقول صاحب كتاب دفع شبه التشبيه هذا مرسل وقد ثبت بالدليل أن الله تعالى لا يوصف بمس شئ، فإن صح فضرب مثل لما جرت به الأقدار.

وقال القاضى أبو يعلى (المجسم) تخمير الطين وخلط بعضه ببعض مضاف إلى اليد التى خلق بها آدم.

٢- عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال ﷺ: «إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» رواه مسلم (٤/٢٠٤٥ برقم ١١٧). والإمام أحمد (٢/١١٦٨) والترمذى (٤/٤٤٩ برقم ٢١٤١ شاكر) والحاكم (٢/١٢٨٨) وغيرهم.

لمعنيين أحـدهمـا هو الوضع الأصلى وهو عـضـو مـركب من لحم وعظم وعـصب واللحم والعظم والعصب جسم مخصوص وصفاته مخصوصة أعنى بالجسم عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو إلا بأن يتنحى عن ذلك المكان – وقد يستعار هذا اللفظ – أعنى اليد لمعنى آخر ليس ذلك المعنى بجسم أصلا كما يقال البلدة فى يد الأمير فإن ذلك مفهوم وإن كان الأمير مقطوع اليد مثلا فعلى العامى وغير العامى أن يتحقق قطعا ويقينا أن الرسول عليه السلام لم يرد بذلك جسـمـا هو عضـو مـركب من لحم ودم وعظم وأن ذلك فى حق الله تعالى محال وهو عنه مقدس فإن خطر بباله أن الله جسم مركب من أعضاء فهو عابد صنم فإن كل جسم فهو مخلوق وعبادة المخلوق كفر وعبادة الصنم كانت كفراً لأنه مخلوق وكان مخلوقاً لأنه جسم فمن عبد جسماً فهو كافر بإجماع

=

قال صاحب كتاب دفع شبه التشبيه: ولما كان القلب بين إصبعين ذليلاً مقهوراً، دل بهذا على إن القلوب مقهورة لمقلبها.

– وقال القاضى أبو يعلى (المجسم): خبر ممتنع حمل الخبر على ظاهره فى الإثبات، والإصبع صفة راجعة إلى الذات لأنا لا نثبت أصابع هى جارحه ولا أبعاضاً.

– وأهل العلم أولوا ذلك على وجوه:

وإنما مثل رسول اللهﷺ وحكي لأصحابه قدره القديم بأوضح ما يفعلون من أنفسهم، لأن الرجل منهم لا يكون على شئ أقدر منه، إذا كان بين أصبعيه، ولذلك يضرب المثل به فيقولون:

« ما فلان إلى فى يدى وخنصرى » [القاموس المحيط – أساس البلاغة]

– وقال بعض من أهل العلم: الأصبعين ههنا بمعنى النعمتين.

– وخص القلوب بالذكر: لأنها معظم ما فى الأبدان وبفسادها يفسد الجمل.

وقال بعضهم: معناه بين أثرين من إرادة الله عز وجل، وفعلين من أفعاله في الفضل والعدل وقد روى فى بعض ألفاظ هذا الخبر ما يدل على ذلك وهو أن بعضهم قال:

إذا شاء أزاغه، وإذا اء أقامه، فأخبر أن القلوب فى زيغها واستقامتها جارية تحت قدرة الله وقبضته، وفى ملكه وسلطانه، وتحقيق ذلك أنه قد روى فيه أنه قال صلى الله عليه وسلم بعده: « يا مقلب القلوب ثبت قلبى ».

الائمة السلف منهم والخلف سواء كان ذلك الجسم كثيفا كالجبال الصم الصلاب أو لطيفا كالهواء والماء وسواء كان مظلما كالأرض أو مشرقاً كالشمس والقمر والكواكب أو مشفا لا لون له كالهواء أو عظيما كالعرش والكرسى والسماء أو صغيراً كالذرة والهباء أو جمادا كالحجارة أو حيواناً كالإنسان فالجسم صنم فان يقدر حسنه وجماله أو عظمه أو صغره أو صلابته وبقاؤه لا يخرج عن كونه صنما ومن نفى الجسمية عنه وعن يده وأصبعه فقد نفى العضوية واللحم والعصب وقدس الرب جل جلاله عما يوجب الحدوث وليعتقد بعده أنه عبارة عن معنى من المعاني ليس بجسم ولا عرض فى جسم يليق ذلك المعنى بالله تعالى فإن كان لا يدرى ذلك المعنى ولا يفهم كنه حقيقته فليس عليه فى ذلك تكليف أصلاً فمعرفة تأويله معناه ليس بواجب عليه بل واجب عليه أن لا يخوض فيه كما سيأتى. مثال آخر إذا سمع الصورة فى قوله عليه السلام «إن الله خلق آدم على صورته[1]»، وإنى

١- أعلم أن فى الأحاديث - أحاديث خلق آدم على صورته - دقائق وآفات لا يعرفها إلا العلماء والفقهاء تارة في نقلها، وتارة فى كشف معناها:

روى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام على صورته». للناس فى هذا مذهبان أحدهما السكوت عن تفسيره، والثانى الكلام فى معناه.

واختلف أرباب هذا المذهب فى الهاء إلى من تعود على ثلاثة أقوال:

أحدهما: تعود إلى بعض بنى آدم، وذلك أن النبى ﷺ مر برجل يضرب رجلا وهو يقول قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فقال ﷺ: «إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته».

وإنما خص آدم بالذكر، لأنه هو الذى ابتدئت خلقة وجهه على هذه الصورة التى احتذى عليها من بعده، وكأنه نبه على أنه سببت آدم وأنت من ولده وذلك مبالغة فى زجره، فعلى هذا تكون الهاء كناية عن المضروب ومن الخطأ الفاحش أن ترجع إلى الله عز وجل، لقوله ووجه من أشبه وجهك، فإنه إذا نسبه إليه سبحانه كان تشبيها صريحاً.

=

=

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته ».

القول الثانى: أن الهاء كناية عن اسمين ظاهرين، فلا يصلح أن تصرف إلى الله عز وجل لقيام الدليل أنه تعالى ليس بذى صورة، فعادت إلى آدم.

ومعنى الحديث: أن الله تعالى خلق آدم على صورته التى خلقه عليها تاما لم يفعله من نطفة إلى علقة كبنيه. وهذا مذهب أبى سليمان الخطابى. وقد ذكره ثعلب فى أماليه.

القول الثالث: أنها تعود إلى الله تعالى وفى بعض ذلك قولان:

أحدهما: أن تكون صورة ملك لأنها فعله وخلقه فتكون إضافتها إليه من وجهين:

أحدهما: التشريف بالإضافة كقوله تعالى و طهر بيتي للطائفين.

والثاني: ابتدعها لا على مثال سبق.

والقول الثانى: أن تكون الصورة بمعنى الصفة تقول هذه صورة هذا الأمر، أى صفته ويكون خلق آدم على صفته من الحياة والعلم والقدرة، والسمع، والبصر، والإرادة، فميزه بذلك عن جميع الحيوانات ثم ميزه عن الملائكة بصفة التعالى حين اسجدهم له، والصورة ههنا معنوية لا صورة تخاطيط. ا.هـ

ويعقب الراغب الاصفهانى على ذلك فيقول: الصورة أراد بها ما خص الإنسان بها من الهيئة المدركة بالبصر، والبصيرة، وبها فضله على كثير من خلقه وإضافته إلى الله سبحانه على سبيل الملك لا سبيل البعضية، والتشبية تعالى حق ذلك على التشريف له. ا.هـ

1- ذكر ابن الجوزى فى كتابه فى « شبه التشبيه » هذا الحديث فقال روى عن عبد الرحمن بن عياش عن النبى ﷺ قال « رأيت ربى فى أحسن صورة فقال لى: فيم يختصم الملأ الاعلى يا محمدا أقلت: أنت أعلم يا ربى فوضع كفه بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى فعلمت ما فى السموات والارض.

قال الإمام أحمد، أصل هذا الحديث وطرقه مضطربه يقول صاحب كتاب « دفع شبه التشبيه » فالصورة إن قلنا ترجع إلى الله تعالى: فالمعنى: رأيته على أحسن صفاته من الإقبال على، والرضا عنى، وإن قلنا ترجع إلى رسول الله ﷺ فالمعنى رأيته وأنا على أحسن صورة ذكر القاضى أبو يعلى فى كتابه الكناية (رأيت ربى فى أحسن صورة: أى فى أحسن موضع).

-- والحديث رواه الترمذى فى سننه (٥/٣٦٩) وحسنه مرة وصححه أخرى. والخطيب البغدادى فى تاريخه (٨/١٥٢) وابن الجوزى فى الموضوعات (١/١٢٥) والطبرانى فى الكبير (١/٣١٧) وأورده

=

فينبغى أن يعلم أن الصورة اسم مشترك قد يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة فى أجسام مؤلفة مولدة مرتبة ترتيبا مخصوصا مثل الأنف والعين والفم والخد التى هى أجسام وهى لحوم وعظام وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم ولا هيئة فى جسم ولا هو ترتيب فى أجسام كقولك عرف صورته وما يجرى مجراه فليتحقق كل مؤمن أن الصورة فى حق الله لم تطلق لإرادة المعنى الأولى الذى هو جسم لحمى وعظمى مركب من أنف وفم وخد – فإن جميع ذلك أجسام وهيآت فى أجسام وخالق الأجسام والهيآت كلها منزه عن مشابهتها وصفاتها وإذا علم هذا يقينا فهو مؤمن فإن خطر له أنه لم يرد هذا المعنى فما الذى أراده فينبغى أن يعلم أن ذلك لم يؤمر به بل أمر بأن لا يخوض فيه فإنه ليس على قدر طاقته لكن ينبغى أن يعتقد أنه أريد به معنى يليق بجلال الله وعظمته مما ليس بجسم ولا عرض فى جسم، مثال آخر إذا قرع سمعه النزول فى قوله ﷺ (ينزل الله تعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا)[1] فالواجب عليه أن يعلم أن النزول اسم مشترك قد يطلق إطلاقا يفتقر فيه الى ثلاثة أجسام جسم عال هو مكان لساكنه وجسم سافل كذلك وجسم منتقل

=

السيوطى فى كتابه « اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » (١ / ٣١) وذكره الذهبى فى (سير اعلام النبلاء) (١٠ / ١١٣-١١٤) وهو بتمامه فى تاليف البيهقى وهو غير منكرا.

– ورواه البيهقى فى الأسماء والصفات ص٣٠٠ بتحقيق الإمام الكوثرى. وقال عقبه (وقد روى من وجه آخر وكلها ضعيف. ا.هـ

وقال الدارقطنى كما فى العلل المتناهية (١ / ١٣٤) لابن الجوزى: « كل أسانيده مضطربة ليس فيها صحيح » ا.هـ

١– رواه البخارى (٣ / ٢٩ فتح) ومسلم (١ / ٥٢٢) فى الصحيحين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير يقول: « من يدعونى فاستجب له ».

– يقول صاحب كتاب التناقضات ص١٨٩ : أن النازل هو ملك من ملائكة الله سبحانه بامره ولا يحتمل أن المراد بـ « مناد » هو الله سبحانه البتة، لأن النبى ﷺ لا يقول عن ربه سبحانه « مناد » ولأن الله

=

من السافل إلى العالى ومن العالى إلى السافل فإن كان من أسفل إلى علو سمى صعودا وعروجا ورقيا وإن كان من علو إلى أسفل سمى نزولا وهبوطا وقد يطلق على معنى آخر ولا يفتقر فيه إلى تقدير انتقال وحركة فى جسم ما قال الله تعالى « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج »[1] وما رؤى البعير والبقر نازلا من السماء بالانتقال بل هى مخلوقة فى الأرحام ولانزالها معنى لا محالة كما قال الشافعى رضى الله عنه دخلت مصر فلم يفهموا كلامى فنزلت ثم نزلت ثم نزلت فلم يرد به انتقال جسد إلى أسفل فتحقق المؤمن قطعا أن النزول فى حق الله تعالى ليس بالمعنى الأول وهو انتقال شخص وجسد من علو الى أسفل فإن الشخص والجسد أجسام والرب جل جلاله ليس بجسم فإن خطر له أنه إن لم يرد هذا فما الذى أراد فيقال له أنت إذا عجزت عن فهم نزول البعير من السماء فأنت عن فهم نزول الله

=

سبحانه لا يمكن أن ينزل بذاته كما تتخيل المجسمة إلى السماء الدنيا لأن فى ذلك حلول الخالق فى المخلوق وهو كفر بواح، وقول من قال « ينزل لا كنزولنا » كلام فلسفى متناقض لا معنى له، لأننا نقول له: إما أن تقول ينزل بذاته فتكون مجسما حلولياً وإما أن تنزه الله عن ذلك. وتقول بما فى هذه الأحاديث الصحيحة المفسرة المبينة لمعنى قوله فى الحديث الآخر « ينزل الله » مع أن بعض المشايخ ضبط هذه اللفظة بضم الياء فقال: « ينزل » كما أثبتناها فى المتن العالى أورده الحافظ ابن الجوزى وكما جاء ذلك فى كلام الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » ٣١ / ١٣٠ فاستيقظ وتنبه يقول الأستاذ حسن السقاف محقق كتاب دفع شبه التشبية ص ١٩٤.

وهناك ملاحظة مهمة جداً وهى أن عقيدة نزول الله بذاته إلى السماء الدنيا فى شطر الليل الآخر.. باطلة بصريح المعقول عند جميع العقول السليمة، وذلك لأن شطر الليل الآخر مستمر على وجه الكرة الأرضية طوال الأربع والعشرين ساعه، وهو متنقل من جزء من الأرض إلى الجزء الذى يليه فعلى هذا من يجلس معبود المجسمة على عرشه؟!!

وقال الحافظ البيهقى فى سننه الكبرى (٣ / ١٣) « والنزول والمجئ صفتان منفيتان عن الله تعالى من طريق الحركة والانتقال من حال إلى حال... ا.هـ

١- سورة الزمر (٣٩) وتمامها « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فانى تصرفون آيه (٦).

تعالى أعجز فليس هذا بعشك فادرجي واشتغل بعبادتك أو حرفتك واسكت واعلم أنه أريد به معنى من المعانى التى يجوز أن يراد بالنزول فى لغة العرب ويليق ذلك المعنى بجلال الله تعالى وعظمته وإن كنت لا تعلم حقيقته وكيفيته مثال آخر إذا سمع لفظ الفوق فى قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾[1] وفى قوله تعالى ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم** ﴾[2] فليعلم أن الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين أحدهما نسبة جسم الى جسم بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل يعنى أن الأعلى من جانب رأس الأسفل وقد يطلق لفوقية الرتبة وبهذا المعنى يقال الخليفة فوق السلطان والسلطان فوق الوزير وكما يقال العلم فوق العلم والأول يستدعى جسما ينسب إلى جسم

والثانى لا يستدعيه فليعتقد المؤمن قطعاً أن الأول غير مراد وأنه على الله تعالى محال فإنه من لوازم الأجسام أو لوازم أعراض الأجسام وإذا عرف نفى هذا المحال فلا عليه إن لم يعرف أنه لماذا أطلق وماذا أريد فقس على ما ذكرناه مالم نذكره

الايمان والتصديق

وهو أنه يعلم قطعاً أن هذه الألفاظ أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته وأن رسول الله ﷺ صادق فى وصف الله تعالى به فليؤمن بذلك وليوقن بأن ما قاله صدق وما أخبر عنه حق لا ريب فيه وليقل آمنا وصدقنا وأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله فهو كما وصفه وحق بالمعنى الذى أراده وعلى الوجه الذى قاله وإن كنت لا تقف على حقيقته فإن قلت التصديق إنما يكون بعد التصور والإيمان انما يكون بعد التفهم فهذه الألفاظ إذا لم يفهم العبد معانيها كيف يعتقد

١- سورة الأنعام (٦) وتمامها ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ آية (١٨)

٢- سورة النحل (١٦) وتمامها ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾

صدق قائلها فيها فجوابك أن التصديق بالأمور الجميلة ليس بمحال وكل عاقل يعلم أنه أريد بهذه الألفاظ معان وإن كل اسم فله مسمى إذا نطق به من أراد مخاطبة قوم قصد ذلك المسمى فيمكنه أن يعتقد كونه صادقا مخبراً عنه على ما هو عليه فهذا معقول على سبيل الإجمال بل يمكن أن يفهم من هذه الألفاظ أمور جميلة غير مفصلة ويمكن التصديق كما إذا قال فى البيت حيوان أمكن ان صدق دون أن يعرف أنه انسان أو فرس أو غيره بل لو قال فيه شيء أمكن تصديقه وان لم يعرف ماذلك الشيء فكذلك من سمع الإستواء على العرش فهم على الجملة انه أريد بذلك نسبة خاصة إلى العرش فيمكنه التصديق قبل أن يعرف ان تلك النسبة هى نسبة الاستقرار عليه أو الإقبال على خلقه أو الاستيلاء عليه بالقهر أو معنى آخر من معانى النسبة أمكن التصديق به وإن قلت فأى فائدة فى مخاطبة الخلق بما لا يفهمون فجوابك أنه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هو أهله وهم الأولياء والراسخون فى العلم وقد فهموا وليس من شرط من خاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان والعوام بالإضافة إلى العارفين كالصبيان بالإضافة إلى البالغين ولكن على الصبيان أن يسألوا البالغين عما يفهمونه وعلى البالغين أن يجيبوا الصبيان بأن هذا ليس من شانكم ولستم من أهله فخوضوا فى حديث غيره فقد قيل للجاهل فاسألوا أهل الذكر فإن كانوا يطيقون فهمه فهموهم وإلا قالوا لهم وما أوتيتم من العلم إلا قليلا فلا تسألوا عن أشياء ان تبدلكم تسؤكم مالكم ولهذا السؤال هذه معان الإيمان بها واجب والكيفية مجهولة والإيمان به واجب فإذن الإيمان بالجمليات التى ليست مفصلة فى الذهن ممكن ولكن تقديسه الذى هو نفى للمحال عنه ينبغى أن يكون مفصلا فإن المنفى هى الجسمية ولوازمها ونعنى بالجسم ههنا الشخص المقدر الطويل العريض العميق الذى يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو الشخص الذى يدفع ما يطلب مكانه إن كان قويا ويندفع ويتنحى عن

مكانه بقوة دافعه إن كان ضعيفا وانما شرحنا هذا اللفظ مع ظهوره لأن العامى ربما لا يفهم المراد به.

الاعتراف بالعجز

ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعانى وحقيقتها ولم يعرف تأويلها والمعنى المراد به أن يقر بالعجز فإن التصديق واجب وهو عن دركه عاجز فان ادعى المعرفة فقد كذب وهذا معنى قول مالك الكيفية مجهولة يعنى تفصيل المراد به غير معلوم بل الراسخون فى العلم والعارفون من الأولياء إن جاوزوا فى المعرفة حدود العوام وجالوا فى ميدان المعرفة وقطعوا من بواديها أميالا كثيرة فما بقى لهم مما لم يبلغوه وهو بين أيديهم أكثر بل لا نسبة لما طوى عنهم إلى ما كشف لهم لكثرة المطوى وقلة المكشوف بالإضافة إليه والإضافه إلى المطوى المستور

(قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[1] وبالإضافة الى المكشوف (قال صلوات الله عليه أعرفكم بالله أخوفكم لله وأنا أعرفكم بالله) ولأجل كون العجز والقصور ضروريا فى آخر الأمر بالاضافة إلى منتهى الحال (قال سيد الصديقين العجز عن درك الإدراك إدراك)[2]

١ـ أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها، أنها سمعت رسول اللهﷺ يقول فى ذلك سجوده. وفى رواية أخرى كما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه أيضاً بسنده عن أبى هريرة عن عائشة رضى الله عنها قالت: فقدت رسول اللهﷺ ذات ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد أيضا عن أبى أسامة ثم قال الحافظ ابن حجر العسقلانى فى تخريج أحاديث الأذكار «وفى السند لطيفة: وهى رواية صحابى عن صحابى: أبو هريرة عن عائشة.

٢ـ قاله أبو بكر: والمعنى أى إذا علمت أن ثم من لا يعلم ذلك: ذلك هو العلم بالله تعالى: فكان الدليل على العلم به عدم العلم به.

فأوائل حقائق هذه المعانى بالإضافة إلى عوام الخلق كأواخرها بالإضافة الى خواص الخلق فكيف لا يجب عليهم الاعتراف بالعجز

السكوت عن السؤال

وذلك واجب على العوام لأنه بالسؤال متعرض لما لا يطبقه وخائض فيما ليس أهلاً فإن سأل جاهلا زاده جوابه جهلا وربما ورطه فى الكفر من حيث لا يشعر وإن سأل عارفا عجز العارف عن تفهيمه بل عجز عن تفهيم ولده مصلحته فى خروجه إلى المكتب بل عجز الصائغ عن تفيهم النجار دقائق صناعته فإن النجار وإن كان بصيرا بصناعته فهو عاجز عن دقائق الصياغة لأنه إنما يعلم دقائق النجر لاستغراقه العمر فى تعلمه وممارسته فكذلك يفهم الصائغ الصياغة أيضا لصرف العمر إلى تعلمه وممارسته وقبل ذلك لا يفهمه فالمشغولون بالدنيا وبالعلوم التى ليست من قبيل معرفة الله عاجزون عن معرفة الأمور الإلهية عجز كافة المعرضين عن الصناعات عن فهمها بل عجز الصبى الرضيع عن الاغتذاء بالخبز واللحم لقصور فى فطرته لا لعدم الخبز واللحم ولا لأنه قاصر على تغذية الأقوياء لكن طبع الضعفاء قاصر عن التغذى به فمن أطعم الصبى الضعيف اللحم والخبز أو مكنه من تناوله فقد أهلكه وكذلك العوام إذا طلبوا بالسؤال هذه المعانى يجب زجرهم ومنعهم وضربهم بالدرة كما كان يفعله عمر رضى الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات وكما فعلهﷺ فى الإنكار على قوم رآهم خاضوا فى مسئلة القدر وسألوا عنه فقال عليه السلام (فبهذا أمرتم وقال إنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال)[1] أو لفظ هذا معناه كما اشتهر فى الخبر ولهذا أقول يحرم على الوعاظ

١- روى الحديث برواية « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه ».

أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده والإمام مسلم فى صحيحه، والإمام النسائى وابن ماجه عن أبى هريرة عنه.

على رءوس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة بالخوض فى التأويل والتفصيل بل الواجب عليهم الاقتصار على ما ذكرناه وذكره السلف وهو المبالغة فى التقديس ونفى التشبيه وأنه تعالى منزه عن الجسمية وعوارضها وله المبالغة فى هذا بما أراد حتى يقول كل ما خطر ببالكم وهجس فى ضميركم وتصور فى خاطركم فالله تعالى خالقها وهو منزه عنها وعن مشابهتها وأن ليس المراد بالإخبار شيئاً من ذلك وأما حقيقة المراد فلستم من أهل معرفتها والسؤال عنها فاشتغلوا بالتقوى فما أمركم الله تعالى به فافعلوه وما نهاكم عنه فاجتنبوه وهذا قد نهيتم عنه فلا تسألوا عنه ومهما سمعتم شيئاً من ذلك فاسكتوا وقولوا آمنا وصدقنا وما أوتينا من العلم إلا قليلا وليس هذا من جملة ما أتيناه

الإمساك عن التصرف

أى عن التصرف فى ألفاظ واردة ويجب على عموم الخلق الجمود على ألفاظ هذه الأخبار والإمساك عن التصرف فيها من ستة أوجه التفسير والتأويل والتصريف والتفريع والجمع والتفريق الأول التفسير وأعنى به تبديل اللفظ بلغة أخرى يقوم مقامها فى العربية أو معناها بالفارسية أو التركية بل لا يجوز النطق إلا باللفظ الوارد لأن من الألفاظ العربية مالا يوجد لها فارسية تطابقها ومنها ما يوجد لها فارسية تطابقها لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعانى التى جرت عادة العرب باستعارتها منها ومنها ما يكون مشتركا فى العربية ولا يكون فى المعجمة كذلك.

أما الأول: مثاله لفظ الاستواء فإنه ليس له فى الفارسية لفظ مطابق يؤدى بين الفرس من المعنى الذى يؤديه لفظ الاستواء بين العرب بحيث لا يشتمل على مزيد إيهام إذفارسيته أن يقال – رأست باسناد– وهذان لفظان الأول ينبئ عن انتصاب واستقامة فيما يتصور أى ينحنى ويعوج والثانى ينبئ عن سكون وثبات

فيما يتصور أن يتحرك ويضطرب واشعاره بهذه المعانى وإشارته إليها فى العجمية أظهر من أشعار لفظ الاستواء وإشارته إليها فإذا تفاوت فى الدلالة والإشعار لم يكن هذا مثل الأول وإنما يجوز تبديل اللفظ بمثله المرادف له الذى لا يخالفه بوجه من الوجوه لابما يباينه أو يخالفه ولو بأدنى شيء وأدقه وأخفاه.

مثال الثانى: أن الأصبع يستعار فى لسان العرب للنعمة يقال لفلان عندى أصبع أى نعمة ومعناها بالفارسية -انكشت- وما جرت عادة العجم بهذه الاستعارة وتوسع العرب فى التجوز والاستعارة أكثر من توسع العجم بل لا نسبة لتوسع العرب إلى جمود العجم فإذا حسن إرادة المعنى المستعار له فى العرب وسمج ذلك فى العجم نفر القلب عما سمج ومجه السمع ولم يمل إليه فإذا تفاوتا لم يكن التفسير تبديلا بالمثل بل بالخلاف ولا يجوز التبديل إلا بالمثل.

مثال الثالث: العين فإن من فسره فإنما يفسره بأظهر معانيه فيقول هو جسم وهو مشترك فى لغة العرب بين العضو الباصر وبين الماء والذهب، الفضة وليس للفظ جسم وهو مشترك هذا الإشتراك وكذلك لفظ الجنب والوجه يقرب منه فلأجل هذا نرى المنع من التبديل والإقتصار على العربية فإن قيل هذا التفاوت ان ادعيتموه فى جميع الألفاظ فهو غير صحيح إذ لا فرق بين قولك خبز ونان وبين قولك لحم وكوشت وإن اعترف بان ذلك فى البعض فامنع من التبديل عند التفاوت لا عند التماثل فالجواب أن الحق أن التفاوت فى البعض لا فى الكل فلعل لفظ اليد ولفظ دست يتساويان فى اللغتين وفى الاشتراك والاستعارة وسائر الأمور ولسكن إذا إنقسم إلى ما يجوز وإلى مالا يجوز وليس إدراك التمييز بينهما والوقوف على دقائق التفاوت جليا سهلا يسيرا على كافة الخلق بل يكثر فيه الإشكال ولا يتميز محل التفاوت عن محل التعادل فنحن بين إن نحسم الباب احتياطا إذ لا حاجة ولا ضرورة إلى التبديل وبين أن نفتح الباب ونقتحم عموم الخلق ورطة الخطر فليت

شعرى أى الأمرين أحزم وأحوط والمنظور فيه ذات الإله وصفاته وما عندى أن عاقلا متدينا لا يقر بأن هذا الأمر مخطر فإن الخطر فى الصفات الإلهية يجب اجتنابه كيف وقد أوجب الشرع على الموطوءة العدة لبراءة الرحم وللحذر من خلط الأنساب احتياط الحكم والولاية والوراثة وما يترتب على النسب فقالوا مع ذلك تجب العدة على العقيم والآيسة والصغيرة وعند العزل لأن باطن الأرحام إنما يطلع عليه علام الغيوب فإنه يعلم ما فى الأرحام فلو فتحنا باب النظر إلى التفصيل كنا راكبين متن الخطر فايجاب العدة حيث لا علوق أهون من ركوب هذا الخطر فكما أن إيجاب العدة حكم شرعى فتحريم تبديل العربية حكم شرعى ثبت بالاجتهاد وترجيح طريق الأول ويعلم أن الإحتياط فى الخبر عن الله وعن صفاته وعما أراده بالفاظ القرآن أهم وأولى من الاحتياط فى العدة وكل ما احتاط به الفقهاء من هذا القبيل.

أما التصريف الثانى – التأويل وهو بيان معناه بعد إزالة ظاهرة وهذا إما أن يقع من العامى نفسه أو من العارف مع العامى أو من العارف مع نفسه بينه وبين ربه فهذه ثلاثة مواضع.

الأول: تأويل العامى على سبيل الاشتغال بنفسه وهو حرام يشبه خوض البحر المغرق ممن لا يحسن السباحة ولا شك فى تحريم ذلك وبحر معرفة الله أبعد غورا وأكثر معاطب ومهالك من بحر الماء لأن هلاك هذا البحر لا حياة بعده وهلاك بحر الدنيا لا يزيل إلا الحياة الفانية وذلك يزيل الحياة الأبدية فشتان بين الخطرين.

الموضع الثانى: أن يكون ذلك من العالم مع العامى وهو أيضا ممنوع ومثاله أن يجر السباح الغواص فى البحر مع نفسه عاجزا عن السباحة مضطرب القلب والبدن وذلك حرام لأنه عرضة لخطر الهلاك فإنه لا يقوى على حفظه فى لجة البحر وان قدر على حفظه فى القرب من الساحل ولو أمره بالوقوف بقرب الساحل لا يطيعه وإن أمره بالسكون عند التطام الأمواج وإقبال التماسيح وقد فغرت فاها

للالتقام اضطرب قلبه وبدنه ولم يسكن على حسب مراده لقصور طاقته وهذا هو المثال الحق للعالم إذا فتح للعامى باب التأويلات والتصرف فى خلاف الظواهر وفى معنى العوام الأديب والنحوى والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم بل كل عالم سوى المتجردين لتعلم السباحة فى بحار المعرفة القاصرين أعمارهم عليه الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات المعرضين عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات المخلصين لله تعالى فى العلوم والأعمال العاملين بجميع حدود الشريعة وآدابها فى القيام بالطاعات وترك المنكرات المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله تعالى لله المستحقرين للدنيا بل الآخرة والفردوس الأعلى فى جنب محبة الله تعالى فهؤلاء هم أهل الغوص فى بحر المعرفة وهم مع ذلك كله على خطر عظيم يهلك من العشرة تسعة الى أن يسعد واحد بالدر المكنون والسر المخزون ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾(١). ﴿ **وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾(٢).

الموضع الثالث: تأويل العارف مع نفسه فى سر قلبه بينه وبين ربه وهو على ثلاثة أوجه فان الذى انقدح فى سره أن المراد به من لفظ الاستواء والفوق مثلا إما أن يكون مقطوعا به أو مشكوكا فيه أو مظنونا ظنا غالبا فإن كان قطعيا فليعتقده وإن كان مشكوكا فليجتنبه ولا يحكمن على مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ من كلامه باحتمال يعارضه مثله من غير ترجيح بل الواجب على الشاك التوقف وان كان مظنونا فاعلم أن للظن متعلقين. أحدهما أن المعنى الذى انقدح عنده هل هو جائز فى حق الله تعالى أم هو محال والثانى أن يعلم قطعا جوازه لكن تردد فى أنه هل هو مراده أم لا مثال الأول تأويل لفظ الفوق بالعلو المعنوى الذى هو المراد بقولنا السلطان فوق الوزير فانا لا نشك فى ثبوت معناه لله تعالى لكنا ربما نتردد فى أن لفظ الفوق فى قوله ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾(٣) »هل أريد به العلو المعنوى أم

١- سورة الأنبياء (٢١) آيه (١٠١)
٢- سورة القصص (٢٨) آيه (٦٩)
٣- سورة النحل (١٦) آيه (٥٠)

أريد به معنى آخر يليق بجلال الله تعالى دون العلو بالمكان الذى هو محال على ما ليس بجسم ولا هو صفة فى جسم ومثال الثانى تأويل لفظ الاستواء على العرش بأنه أراد به النسبة الخاصة التى للعرش ونسبته أن الله تعالى يتصرف فى جميع العالم ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض بواسطة العرش فإنه لا يحدث فى العالم صورة مالم يحدثه فى العرش كما لا يحدث النقاش والكاتب صورة وكلمة على البياض مالم يحدثه فى الدماغ بل لا يحدث البناء صورة الأبنية مالم يحدث صورتها فى الدماغ فبواسطة الدماغ يدبر القلب أمر عالمه الذى هو بدنه فربما نتردد فى أن إثبات هذه النسبة للعرش إلى الله تعالى هل هو جائز إما لوجوبه فى نفسه أو لأنه أجرى به سنته وعادته وإن لم يكن خلافه محالا كما أجرى عادته فى حق قلب الإنسان بأن لا يمكنه التدبير إلا بواسطة الدماغ وان كان فى قدرة الله تعالى تمكينه منه دون الدماغ لو سبقت به إرادته الأزلية وحقت به الكلمة القديمة التى هى علمه فصار خلافه ممتنعا لا لقصور فى ذات القدرة لكن لاستحالة ما يخالف الإرادة القديمة والعلم السابق الأزلى ولذلك قال ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾[1] وإنما لا تتبدل لوجوبها وانما وجوبها لصدورها عن إرادة أزلية واجبة ونتيجة الواجب واجبة ونقيضها محال وإن لم يكن محالا فى ذاته ولكنه محال لغيره وهو افضاؤه الى أن ينقلب العلم الأزلى جهلا ويمنع نفوذ المشيئة الأزلية فإذا إثبات هذه النسبة لله تعالى مع العرش فى تدبير المملكة بواسطته إن كان جائزا عقلا فهل واقع وجودا هذا مما قد يتردد فيه الناظر وربما يظن وجوده هذا مثال الظن فى نفس المعنى والأول مثال الظن فى كون المعنى مرادا باللفظ مع كون المعنى فى نفسه صحيحا جائزا وبينهما فرقان لكن كل واحد من الظنين إذا انقدح فى النفس وحاك فى الصدر فلا يدخل تحت الاختيار دفعه عن النفس ولا يمكنه أن لا يظن فإن للظن أسبابا ضرورية

١- سورة الاحزاب (٣٣) آيه (٦٢)

لا يمكن دفعها و﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[1] لكن عليه وظيفتان إحداهما أن لا يدع نفسه تطمئن إليه جزما من غير شعور بإمكان الغلط فيه ولا ينبغى أن يحكم مع نفسه بموجب ظنه حكما جازما.

الثانية أنه إن ذكره لم يطلق القول بأن المراد بالاستواء كذا أو المراد بالفوق كذا لأنه حكم بما لا يعلم وقد قال الله تعالى ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[2] لكن يقول أنا أظن أنه كذا فيكون صادقا فى خبره عن نفسه وعن ضميره ولا يكون حكما على صفة الله ولا على مراده بكلامه بل حكما على نفسه ونبأ عن ضميره فإن قيل وهل يجوز ذكر هذا الظن مع كافة الخلق والتحدث به كما اشتمل عليه ضميره وكذلك لو كان قاطعا فهل له أن يتحدث به قلنا تحدثه به إنما يكون على أربعة أوجه فإما أن يكون مع نفسه أو مع من هو مثله فى الاستبصار أو مع من هو مستعد للاستبصار بذكائه وفطنته وتجرده لطلب معرفة الله تعالى أو مع العامى فإن كان قاطعا فله أن يحدث نفسه به ويحدث من هو مثله فى الاستبصار أو من هو متجرد لطلب المعرفة مستعدله خال عن الميل إلى الدنيا والشهوات والتعصبات للمذاهب وطلب المباهاة بالمعارف والتظاهر بذكرها مع العوام فمن اتصف بهذه الصفات فلا بأس بالتحدث معه لأن الفطن المتعطش إلى المعرفة للمعرفة لا لغرض آخر يحيك فى صدره أشكال الظواهر وربما يلقيه فى تأويلات فاسدة لشدة شرهه على الفرار عن مقتضى الظواهر ومنع العلم أهله ظلم كبثه إلى غير أهله وأما العامى فلا ينبغى أن يحدث به وفى معنى العامى كل من لا يتصف بالصفات المذكورة بل مثاله ما ذكرناه من إطعام الرضيع الأطعمة القوية التى لا يطيقها وأما المظنون فتحدثه مع نفسه اضطرار فإن ما ينطوى عليه الذهن من ظن وشك وقطع لازال

١- سورة البقرة (٢) آيه (٢٨٦)

٢- سورة الإسراء (١٧) آيه (٣٦)

النفس يتحدث به ولا قدرة على الخلاص منه فلا منع منه ولا شك فى منع التحدث به مع العوام بل هو أولى بالمنع من المقطوع أما تحدثه مع من هو فى مثل درجته فى المعرفة أو مع المستعدله ففيه نظر فيحتمل أن يقال هو جائز ولا يزيد على أن يقول أظن كذا وهو صادق ويحتمل المنع لأنه قادر على تركه وهو بذكره متصرف بالظن فى صفة الله تعالى أو فى مراده من كلامه وفيه خطر وإباحته تعرف بنص أو إجماع أو قياس على منصوص ولم يرد شيء من ذلك بل ورد قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾[1] **فان قيل يدل على الجواز ثلاثة أمور**

الأول : الدليل الذى دل على إباحة الصدق وهو صادق فإنه ليس يخبر إلا عن ظنه وهو ظان .

الثانى : أقاويل المفسرين فى القرآن بالحدس والظن إذ كل ماقالوه غير مسموع من الرسول عليه السلام بل هو مستنبط بالاجتهاد ولذلك كثرت الأقاويل وتعارضت .

الثالث : إجماع التابعين على نقل الأخبار المتشابهة التى نقلها آحاد الصحابة ولم تتواتر وما اشتمل عليه الصحيح الذى نقله العدل فإنهم جوزوا روايته ولا يحصل بقول العدل إلا الظن والجواب عن الأول أن المباح صدق لا يخشى منه ضرر وبث هذه الظنون لا يخلو عن ضرر فقد يسمعه من يسكن إليه ويعتقده جزما فيكم فى صفات الله تعالى بغير علم وهو خطر والنفوس نافرة عن أشكال الظواهر فإذا وجد مستروحا من المعنى ولو كان مظنونا سكن إليه واعتقده جزما وربما يكون غلطا فيكون قد اعتقد فى صفات الله تعالى ما هو الباطل أو حكم عليه فى كلامه بما لم يرد به وأما الثانى وهو أقاويل المفسرين بالظن فلا نسلم ذلك فيما هو من صفات الله تعالى كالاستواء والفوق وغيره بل لعل ذلك فى الأحكام الفقهية أو فى

١– سورة الاسراء (١٧) آيه (٣٦)

حكايات أحوال الأنبياء و كفار والمواعظ والأمثال ومالا يعظم خطر الخطأ فيه وأما الثالث فقد قال قائلون لا يجوز أن يعتمده فى هذا الباب إلا ما ورد فى القرآن أو تواتر عن الرسول ﷺ تواترا يفيد العلم فأما أخبار الآحاد فلا يقبل فيه ولا نشتغل بتأويله عند من يميل إلى التأويل ولا بروايته عند من يقتصر على الرواية لأن ذلك حكم بالمظنون واعتماد عليه وما ذكروه ليس ببعيد لكنه مخالف لظاهر ما درج عليه السلف فإنهم قبلوا هذه الأخبار من العدول ورووها وصححوها فالجواب من وجهين.

أحدهما أن التابعين كانوا قد عرفوا من أدلة الشرع أنه لا يجوز اتهام العدل بالكذب لا سيما فى صفات الله تعالى فإذا روى الصديق رضى الله عنه خبرا وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا فرد روايته تكذيب له ونسبة له إلى الوضع أو إلى السهو فقبلوه وقالوا قال أبو بكر قال رسول الله ﷺ وقال أنس قال رسول الله عليه السلام وكذا فى التابعين فالآن إذا ثبت عندهم بأدلة الشرع أنه لا سبيل إلى اتهام العدل التقى من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فمن أين يجب أن لا يتهم ظنون الآحاد وأن ينزل الظن منزلة نقل العدل مع أن بعض الظن إثم فإذا قال الشارع ما أخبركم به العدل فصدقوه واقبلوه وانقلوه وأظهروه فلا يلزم من هذا أن يقال ما حدثتكم به نفوسكم من ظنونكم فاقبلوه وأظهروه وارووا عن ظنونكم وضمائركم ونفوسكم ما قلته فليس هذا فى معنى المنصوص ولهذا تقول ما رواه غير العدل من هذا الجنس ينبغى أن يعرض عنه ولا يروى ويحتاط فيه أكثر مما يحتاط فى المواعظ واأأمثال وما يجرى مجراها.

والجواب الثانى ان تلك الأخبار روتها الصحابة لأنهم سمعوها يقينا فما نقلوا إلا ما تيقنوه والتابعون قبلوه ورووه وما قالوا قال رسول الله عليه السلام كذا بل قالوا قال فلان قال رسول الله عليه السلام كذا وكانوا صادقين وما أهملوا روايته

لاشتمال كل حديث على فوائد سوى اللفظ الموهم عند العارف معنى حقيقا يفهمه منه ليس ذلك ظنيا فى حقه مثاله رواية الصحابى عن رسول الله عليه السلام (قوله ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له وهل من مستغفر فاغفر له)[1] الحديث فهذا الحديث سيق لنهاية الترغيب فى قيام الليل وله تأثير عظيم فى تحريك الدواعى للتهجد الذى هو أفضل العبادات فلو ترك هذا الحديث لبطلت هذه الفائدة العظيمة ولا سبيل إلى إهمالها وليس فيه إلا إيهام لفظ النزول عند الصبى والعامى الجارى مجرى الصبى وما أهون على البصيران يغرس فى قلب العامى التنزيه والتقديس عن صورة النزول بأن يقول له إن كان نزوله إلى السماء الدنيا ليسمعنا نداء وقوله فما أسمعنا فأى فائدة فى نزوله ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا فهذا القدر يعرف العامى أن ظاهر النزول باطل بل مثاله أن يريد من فى المشرق إسماع شخص فى المغرب ومناداته فيتقدم إلى المغرب بأقدام معدودة وأخذ يناديه وهو يعلم أنه لا يسمع فيكون نقله الأقدام عملا باطلا وفعلا كفعل المجانين فكيف يستقر مثل هذا فى قلب عاقل بل يضطر بهذا القدر كل عامى إلى أن يتيقن نفى صورة النزول وكيف وقد علم استحالة الجسمية عليه واستحالة الانتقال على غير الأجسام كاستحالة النزول من غير انتقال فإذا الفائدة فى نقل هذه الأخبار عظيمة والضرر يسير فأنى يساوى هذا حكاية الظنون المنقدحة فى الأنفس فهذه سبل تجاذب طرق الاجتهاد فى إباحة ذكر التأويل المظنون أو المنع ولا يبعد ذكر وجه ثالث وهو أن ينظر إلى قرائن حال السائل والمستمع فإن علم أنه ينتفع به ذكره وإن علم أنه يتضرر تركه وإن ظن أحد الأمرين كان ظنه كالعلم فى إباحة الذكر وكم من إنسان لا تتحرك داعيته باطنا إلى معرفة هذه المعانى ولا يحيك فى نفسه اشكال من ظواهرها فذكر التأويل معه مشوش وكم من إنسان يحيك فى نفسه أشكال

١- سبق تخريجه

فمثل هذا لو ذكر معه الاحتمال المظنون بل مجرد الإحتمال الذى ينبو عنه اللفظ انتفع به ولا بأس بذكره معه فإنه دواء لدائه وإن كان داء فى غيره ولكن لا ينبغى أن يذكر على رءوس المنابر لأن ذلك يحرك الدواعى الساكنة من أكثر المستمعين وقد كانوا عنه غافلين وعن إشكاله منفكين ولما كان زمان السلف الأول زمان سكون القلب بالغوا فى الكف عن التأويل خيفة من تحريك الدواعى وتشويش القلوب فمن خالفهم فى ذلك الزمان فهو الذى حرك الفتنة وألقى هذه الشكوك فى القلوب مع الاستغناء عنه فباء بالاثم أما الآن وقد فشا ذلك فى بعض البلاد فالعذر فى إظهار شىء من ذلك رجاء لإماطة الأوهام الباطلة عن القلوب أظهر واللوم عن قائله أقل فإن قيل فقد فرقتم بين التأويل المقطوع والمظنون فبماذا يحصل القطع بصحة التأويل قلنا بأمرين

أحدهما: أن يكون المعنى مقطوعا ثبوته لله تعالى كفوقية المرتبة

الثانى: أن لا يكون اللفظ إلا محتملا لأمرين وقد بطل أحدهما وتعين الثانى مثاله قوله تعالى «وهو القاهر فوق عباده»[1] فإنه إن ظهر فى وضع اللسان أن الفوق لا يحتمل إلا فوقية المكان أو فوقية الرتبة وقد بطل فوقية المكان لمعرفة اللتقديس لم يبق الا فوقية الرتبة كما يقال السيد فوق العبد والزوج فوق الزوجة والسلطان فوق الوزير فالله فوق عباده بهذا المعنى وهذا كالمقطوع به فى لفظ الفوق وأنه لا يستعمل فى لسان العرب إلا فى هذين المعنيين أما لفظ الاستواء إلى السماء وعلى العرش ربما لا ينحصر مفهومه فى اللغة هذا الانحصار وإذا تردد بين ثلاثة معان معنيان جائزان على الله تعالى ومعنى واحد هو الباطل فتنزيله على أحد المعنيين الجائزين أن يكون بالظن وبالاحتمال المجرد وهذا تمام النظر فى الكف عن التأويل.

١- سورة الانعام (٦) وتمامها «وهو الحكيم الخبير» آيه (١٨)

التصرف الثالث: الذى يجب الإمساك عنه التصرف ومعناه أنه إذا ورد قوله تعالى «**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**»[1] فلا ينبغى أن يقال مستو ويستوى لأن

١- سورة طه (٢٠) اية (٥)

ولدفع ما ذكر من شبه حول تفسير هذه الآية نذكر ما قيل لرد هذه الشبه، فنقول:

تعلقت المشبهة بهذه الآية فى أن معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه:

أحـدها: أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان، ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان، بل كان غنيا عنه، فهو بالصفة التى لم يزل عليها إلا أن يزعم زاعم أنه لم يزل مع الله عرش.

الثـانى: أن الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه فى يمين العرش غير الحاصل فى يسار العرش فيكون فى نفسه مؤلفا مركبا، وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب وذلك محال.

الثالث: أن الجالس على العرش إما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة أولا يمكنه ذلك، فإن كان الأول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثا لا محالة، وإن كان الثانى كان كالمربوط، بل كان كالزمن، بل أسوأ حالا منه، فإن الزمن إذا شاء الحركة فى راسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم.

الرابع: هو أن معبودهم: إما أن يحصل فى كل مكان أو فى مكان دون مكان، فإن حصل فى كل مكان لزمهم أن يحصل فى مكان النجاسات والقاذورات، وذلك لا يقوله عاقل، وإن حصل فى مكان دون مكان افتقر إلى مخصص يخصصه بذلك المكان، فيكون محتاجاً وهو على الله محال.

الخامس: إن قوله: «ليس كمثله شيء» يتناول نفى المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء، فإنه يحسن أن يقال: ليس كمثله شئ إلا فى الجلوس، وإلا فى المقدار، وإلا فى اللون، وصحة الاستثناء تقتضى دخول جميع هذه الأمور تحته، فلو كان جالسا لحصل من يماثله فى الجلوس، فحينئذ يبطل معنى الآية.

السادس: قوله تعالى: «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانيه» فإذا كانوا حاملين العرش، والعرش مكان معبودهم، فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم، وذلك غير معقول، لأن الخالق هو الذى يحفظ المخلوق، أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله.

السابع: أنه لو جاز أن يكون المستقر فى المكان إلها، فكيف يعلم أن الشمس والقمر ليس بإله لأن طريقنا إلى نفى إلهية الشمس والقمر إنهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثا ولم يكن إلها فإذا ابطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح فى إلهية الشمس والقمر.

الثامن: أن العالم كرة فالجهة التى هى فوق بالنسبة إلينا هى تحت النسبة إلى ساكن ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس، فو كان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وإن كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين، وباتفاق العقلاء لا يحق أن يقال المعبود تحت جميع الأشياء.

=

المعنى يجوز أن يختلف لأن دلالة قوله هو مستو على العرش على الاستقرار أظهر من قوله ﴿ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾[1] الآية بل هو كقوله ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾[2] فإن هذا يدل على استواء قد انقضى من إقبال على خلقه أو على تدبير المملكة بواسطته ففى تغيير التصاريف ما يوقع فى تغيير الدلالات والاحتمالات فليجتنب التصريف كما يجتنب الزيادة فإن تحت التصريف الزيادة والنقصان

التصرف الرابع: الذى يجب الإمساك عنه القياس والتفريع مثل أن يرد لفظ اليد فلا يجوز إثبات الساعد والعضد والكف مصيرا إلى أن هذا من لوازم اليد وإذا

=

التاسع: أجمعت الأمة على أن قوله: «قل هو الله أحد» من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذى منه يلى ما على يمينه غير الجانب الذى منه يلى ما على يساره، فيكون مركبا منقسما فلا يكون أحد فى الحقيقة فيبطل قوله: «قل هو الله أحد»

العاشر: أن الخليل عليه السلام: قال: لا أحب الآفلين، ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبداً، غائبا أبداً، فكان يندرج تحت قوله: لا أحب الآفلين: فثبت بهذه الدلائل أن الاستقرار على الله تعالى محال (أنظر كتاب: «تأسيس التقديس» والتفسير الكبير للفخر، والكشاف للزمخشرى).

يقول صاحب المنحة الالهية:

إن الاستواء على العرش صفة لله تبارك وتعالى، لكننا لا نعرف كيفية هذه الصفة لأنا لا نعرف حقيقة ذاته، ولا حقيقة صفاته، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، ولذلك كان المتقدمون من السلف الأولين إذا سئلوا عن هذه الصفة أجابوا بقولهم:

الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

أما الجهمية، والمعتزلة فعلى طريقتهم فى إنكار صفات الله، ينكرون صفة الاستواء.

وأما الأشاعرة: فإنهم يتاولون هذه الصفة ويقولون استوى على العرش، يعنى استوى على العرش أو استولى عليه.

والحق: هو اعتقاد أهل السنة والجماعة. أ.هـ

١- سورة الرعد آية (٢)

٢- سورة البقرة آية (٢٩)

ورد الإصبع لم يجز ذكر الأنملة كما لا يجوز ذكر اللحم والعظم والعصب وإن كانت اليد المشهورة لا تنفك عنه وأبعد من هذه الزيادة إثبات الرجل عند ورود اليد وإثبات الفم عند ورود العين أو عند ورود الضحك وإثبات الأذن والعين عند ورود السمع والبصر وكل ذلك محال وكذب وزيادة وقد يتجاسر بعض الحمقى من المشبهة الحشوية فلذلك ذكرناه.

التصرف الخامس: لا يجمع بين متفرق ولقد بعد عن التوفيق من صنف كتابا في جمع هذه الأخبار خاصة ورسم في كل عضو بابا فقال باب في إثبات الرأس وباب في اليد إلى غير ذلك وسماه كتاب الصفات فإن هذه كلمات متفرقة صدرت من رسول الله عليه السلام في أوقات متفرقة متباعدة اعتمادا على قرائن مختلفة تفهم السامعين معاني صحيحة فإذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الإنسان صار جمع تلك المتفرقات في السمع دفعة واحدة قرينة عظيمة في تأكيد الظاهر وإيهام التشبيه وصار الإشكال في أن الرسول عليه السلام لم نطق بما يوهم خلاف الحق أعظم في النفس وأوقع بل الكلمة الواحدة يتطرق إليها الاحتمال فإذا اتصل بها ثانية وثالثة ورابعة من جنس واحد صار متواليا بضعف الاحتمال بالإضافة إلى الجملة ولذلك يحصل من الظن بقول المخبرين وثلاثة ما لا يحصل بقول الواحد بل يحصل من العلم القطعي بخبر التواتر مالا يحصل بالآحاد ويحصل من العلم القطعي باجتماع التواتر مالا يحصل بالآحاد وكل ذلك نتيجة الإجتماع إذ يتطرق الاحتمال إلى قول كل عدل وإلى كل واحدة من القرائن فإذا انقطع الاحتمال أو ضعف فلذلك لا يجوز جمع المتفرقات.

التصرف السادس: التفريق بين المجتمعات فكما لا يجمع بين متفرقة فلا يفرق بين مجتمعة فان كل كلمة سابقة على كلمة أو لاحقة لها مؤثرة في تفهيم معناه مطلقا ومرجحة الاحتمال الضعيف فيه فإذا فرقت وفصلت سقطت دلالتها

مثاله قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[1] لا تسلط على أن يقول القائل هو فوق لأنه إذا ذكر القاهر قبله ظهر دلالة الفوق على الفوقية التى للقاهر مع المقهور وهى فوقية الرتبة ولفظ القاهر يدل عليه بل لا يجوز أن يقول وهو القاهر فوق غيره بل ينبغى أن يقول فوق عباده لأن ذكر العبودية فى وصفه فى الله فوقه يؤكد احتمال فوقية السيادة إذ لا يحسن أن يقال زيد فوق عمرو قبل أن يتبين تفاوتهما فى معنى السيادة والعبودية أو غلبة القهر أو نفوذ الأمر بالسلطنة أو بالأبوة أو بالزوجية فهذه الأمور يغفل عنها العلماء فضلا عن العوام فكيف يسلط العوام فى مثل ذلك على التصرف بالجمع والتفريق والتأويل والتفسير وأنواع التغيير ولأجل هذه الدقائق بالغ السلف فى الجمود والاقتصار على موارد التوقيف كما ورد على الوجه الذى ورد وباللفظ الذى ورد والحق ما قالوه والصواب ما رأوه فأهم المواضع بالاحتياط ما هو تصرف فى ذات الله وصفاته وأحق المواضع بإلجام اللسان وتقييده عن الجريان فيما يعظم فيه الخطر وأى خطر أعظم من الكفر.

الوظيفة السادسة: فى الكف بعد الإمساك وأعنى بالكف كف الباطن عن التفكر فى هذه الأمور فذلك واجب عليه كما وجب عليه إمساك اللسان عن السؤال والتصرف وهذا أثقل الوظائف وأشدها وهو واجب كما وجب على العاجز الزمن أن لا يخوض غمرة البحار وإن كان يتقاضاه طبعة أن يغوص فى البحار ويخرج دررها وجواهرها ولكن لا ينبغى أن يغره نفاسة جواهرها مع عجزه عن نيلهابل ينبغى أن ينظر إلى عجزه وكثرة معاطبها ومهالكها ويتفكر أنه إن فاته نفائس البحار فما فاته إلا زيادات وتوسعات فى المعيشة وهو مستغن عنها فإن غرق أو التقمه تمساح فاته أصل الحياة فإن قلت إن لم ينصرف قلب من التفكر والتشوف إلى البحث فما طريقه قلت طريقه أن يشغل نفسه بعبادة الله وبالصلاة

١- سورة الانعام آيه (٦١)

وقراءة القرآن والذكر فإن لم يقدر فبعلم آخر لا يناسب هذا الجنس من لغة أو نحو أو خط أو طب أو فقه فإن لم يمكنه فبحرفة أو صناعة ولو الحراثة والحياكة فإن لم يقدر فبلعب ولهو وكل ذلك خير له من الخوض فى هذا البحر البعيد غوره وعمقه العظيم خطره وضرره بل لو اشتغل العامى بالمعاصى البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض فى البحث عن معرفة الله تعالى فإن ذلك غايته الفسق وهذا عاقبته الشرك﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾[1]

فإن قلت العامى إذا لم تسكن نفسه الى الاعتقادات الدينية إلا بدليل فهل يجوز أن يذكر له الدليل فان جوزت ذلك فقد رخصت له فى التفكر والنظر وأى فرق بينه وبين غيره

(الجواب) إنى أجوز له أن يسمع الدليل على معرفة الخالق ووحدانيته وعلى صدق الرسول وعلى اليوم الآخر ولكن بشرطين

أحدهما: أن لا يزاد معه على الأدلة التى فى القرآن والآخر أن لا يمارى فيه إلا مراء ظاهرا ولا يتفكر فيه إلا تفكرا سهلا جليا ولا يمعن فى التفكر ولا يوغل غاية الإيغال فى البحث وأدلة هذه الأمور الأربعة ما ذكر فى القرآن أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** ﴾[2] وقوله ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ** ﴾[3] وكقوله ﴿ **فَلْيَنظُرِ**

١- سورة النساء آيه (١١٦)

٢- سورة يونس آيه (٣١)

٣- سورة ق آيه (٦-١٠)

الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾[1]

وقـوله ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا الى قـوله وَجَنَّـاتٍ أَلْفَافًا ﴾[2] وأمثال ذلك وهى قريب من خمسمائة آية جمعناها فى « كتاب جواهر القرآن » بها ينبغى أن يعرف الخلق جلال الله الخالق وعظمته لا بقول المتكلمين أن الأعراض حادثة وأن الجواهر لا تخلو عن الأعراض الحادثة فهى حادثة ثم الحادث يفتقر إلى محدث فإن تلك التقسيمات والمقدمات وإثباتها بأدلتها الرسمية يشوش قلوب العوام والدلالات الظاهرة القريبة من الأفهام على ما فى القرآن تنفعهم وتسكن نفوسهم وتغرس فى قلوبهم الاعتقادات الجازمة وأما الدليل على الوحدانية فيقنع فيه بما فى القرآن من قوله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[3] فـان اجتماع المدبرين سبب افساد التدبير وبمثل قوله ﴿ لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لا يبتغوا الى ذى العرش سبيلا ﴾[4] وقوله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[5]

الآيات الواردة فى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

وأما صدق : الرسول فيستدل عليه بقوله تعالى ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[6] وبقوله : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[7] وقوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾[8] وأمثاله

١- سورة عبس آيه (٢٤) ومابعدها
٢- سورة النبأ آيه (٦) ومابعدها
٣- سورة الأنبياء آيه (٢٢)
٤- سورة الإسراء آيه (٤٢)
٥- سورة المؤمنون آيه (٩١)
٦- سورة الإسراء آيه (٨٨)
٧- سورة البقرة آيه (٢٣)
٨- سورة هود آيه (١٣)

وأما اليوم الآخر: فيستدل عليه بقوله: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[1] وبقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾[2] الى قوله: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾[3] وبقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[4] إلى قوله: ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ وأمثال ذلك كثير في القرآن فلا ينبغي أن يزد عليه فإن قيل فهذه الأدلة التي اعتمدها المتكلمون وقرروا وجه دلالتها فما بالهم يتمنعون عن تقرير هذه الأدلة ولا يمنعون عنها وكل ذلك مدرك بنظر العقل وتأمله فإن فتح للعامي باب النظر فليفتح مطلقا أو ليسد عليه طريق النظر رأسا وليكلف التقليد من غير دليل.

والجواب: أن الأدلة تنقسم إلى ما يحتاج فيه إلى تفكر وتدقيق خارج عن طاقة العامي وقدرته وإلى ما هو جلي سابق إلى الأفهام ببادئ الرأى من أول النظر مما يدركه كافة الناس بسهولة فهذا لا خطر فيه وما يفتقر إلى التدقيق فليس على حد وسعة فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع والرجل القوى وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلا ولهذا قلنا أدلة القرآن أيضا ينبغي إليها

١- سورة يس آيه (٧٩)

٢- سورة القيامة آيه (٣٦)

٣- سورة القيامة آيه (٤٠)

٤- سورة الحج آيه (٥، ٦)

إصغاءه إلى كلام جلى ولا يمارى فيه إلا مراءا ظاهرا ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر وتحقيق النظر فمن الجلى أن من قدر على الإبتداء فهو على الإعادة أقدر كما قال ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[1] وأن التدبير لا ينتظم فى دار واحدة بمدبرين فكيف ينتظم فى كل العالم وأن من خلق علم كما قال تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[2] فهذه الأدلة تجرى للعوام مجرى الماء الذى جعل الله منه كل شيء حى وما أخذته المتكلمون وراء ذلك من تنقير وسؤال وتوجيه إشكال ثم اشتغال بحله فهو بدعة وضرره فى حق أكثر الخلق ظاهر فهو الذى ينبغى أن يتوقى والدليل على تضرر الخلق به المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك ويدل عليه أيضا أن رسول الله ﷺ والصحابة باجمعهم ماسلكوا فى المحاجة مسلك المتكلمين فى تقسيماتهم وتدقيقاتهم لا لعجز منهم عن ذلك فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه ولخاضوا فى تحرير الأدلة خوضا يزيد على خوضهم فى مسائل الفرائض فان قيل إنما أمسكوا عنه لقلة الحاجة فإن البدع إنما نبغت بعدهم فعظم حاجة المتأخرين وعلم الكلام راجع إلى علم معالجة المرضى بالبدع فلماقلت فى زمانهم أمراض البدع قلت عنايتهم بجميع طرق المعالجة فالجواب من وجهين

أحدهما : أنهم فى مسائل الفرائض ما اقتصروا على بيان حكم الوقائع بل وضعوا المسائل وفرضوا فيها ما تنقضى الدهور ولا يقع مثله لأن ذلك مما أمكن وقوعه فصنفوا علمه ورتبوه قبل وقوعه إذ علموا أنه لا ضرر فى الخوض فيه وفى بيان حكم الواقعة قبل وقوعها والعناية بإزالة البدع ونزعها عن النفوس أهم فلم يتخذوا ذلك صناعة لأنهم عرفوا أن الأستضرار بالخوض فيه أكثر من الانتفاع ولولا

١- سورة الروم (٣٠) آية (٢٧)

٢- سورة الملك (٦٧) آية (١٤)

أنهم كانوا قد حذروا من ذلك وفهموا تحريم الخوض لخاضوا فيه

والجواب الثاني: أنهم كانوا محتاجين الى محاجة اليهود والنصارى فيإاثبات نبوة محمدﷺ وإلى إثبات البعث مع منكريه ثم مازادوا فى هذه القواعد التى هى أمهات العقائد على أدلة القرآن فمن أقنعه ذلك قبلوه ومن لم يقنع قتلوه وعدلوا إلى السيف والسنان بعد إفشاء أدلة القرآن وما ركبوا ظهر اللجاج فى وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات وتحرير طريق المجادلة وتذليل طرقها ومناهجها كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان فما بعد بيان الله بيان على أننا ننصف ولا ننكر أن حاجة المعالجة تزيد بزيادة المرض وأن لطول الزمان وبعد العهد عن عصر النبوة تأثيرا فى إثارة الإشكالات وأن للعلاج طريقين

أحدهما: الخوض فى البيان والبرهان إلى أن يصلح واحد يفسد به اثنان فإن صلاحه بالاضافة إلى الأكياس وفساده بالإضافة إلى البله وما أقل إلا كيسا وما أكثر البله والعناية بالأكثرين أولى

والطريق الثاني: طريق السلف فى الكف والسكوت والعدول إلى الدرة والسوط والسيف وذلك مما يقنع الأكثرين وإن كان لا يقنع الأقلين وآية اقناعه أن من يسترق من الكفار من العبيد والإماء تراهم يسلمون تحت ظلال السيوف ثم يستمرون عليه حتى يصير طوعا ما كان فى البداية كرها ويصير اعتقاداً جزماً ما كان فى الابتداء مراء وشكا وذلك بمشاهدة أهل الدين والمؤانسة بهم وسماع كلام الله ورؤية الصالحين وخيرهم وقرائن من هذا الجنس تناسب طباعهم مناسبة أشد من مناسبة الجدل والدليل فإذا كان كل واحد من العلاجين يناسب قوما دون قوم وجب ترجيح الأنفع فى الأكثر فالمعاصرون للطبيب الأول المؤيد بروح القدس

المكاشف من الحضرة الإلهية الموحى إليه من الخبير البصير بأسرار عباده وبواطنهم أعرف بالأصوب والأصلح قطعا فسلوك سبيلهم لا محالة أولى.

التسليم لأهل المعرفة

الوظيفة السابعة: التسليم لأهل المعرفة وبيانه أنه يجب على العامى أن يعتقد ان ما انطوى عنه من معانى هذه الظواهر وأسرارها ليس منطويا عن رسول الله ﷺ وعن الصديق وعن أكابر الصحابة وعن الأولياء والعلماء الراسخين وأنه إنما انطوى عنه لعجزه وقصور معرفته فلا ينبغى أن يقيس بنفسه غيره فلا تقاس الملائكة بالحدادين وليس ما يخلو عنه مخادع العجائز يلزم منه أن يخلو عنه خزائن الملوك فقد خلق الناس أشتاتا متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر فانظر إلى تفاوتهما وتباعد ما بينهما صورة ولونا وخاصية ونفاسة فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف فبعضها معدن النبوة والولاية والعلم ومعرفة الله تعالى وبعضها معدن للشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية بل ترى الناس يتفاوتون فى الحرف والصناعات فقد يقدر الواحد بخفة يده وحذاقة صناعته على أمور لا يطمع الآخر فى بلوغ أوائله فضلا عن غايته ولو اشتغل بتعلمه جميع عمره فكذلك معرفة الله تعالى بل كما ينقسم الناس إلى جبان عاجز لا يطيق النظر إلى التطام أمواج البحر وإن كان على ساحله وإلى من يطيق ذلك ولكن لا يمكنه الخوض فى أطرافه وإن كان قائما فى الماء على رجله وإلى من يطيق ذلك لكن لا يطيق رفع الرجل عن الأرض اعتمادا على السباحة وإلى من يطيق السباحة إلى حد قريب من الشط لكن لا يطيق خوض البحر إلى لجته والمواضع المغرقة الخطرة وإلى من يطيق ذلك لا يطيق الغوص فى عمق البحر إلى مستقره الذى فيه نفائسه وجواهره فهكذا مثال بحر المعرفة وتفاوت الناس فيه مثله حذو القذة بالقذة من غير فرق.

فإن قيل: فالعارفون محيطون بكمال معرفة الله سبحانه حتى لا ينطوى عنهم شىء قلنا هيهات فقد بينا بالبرهان القطعى فى كتاب المقصد الأسنى فى

معانى أسماء الله الحسنى أنه لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله وإن الخلائق وإن اتسعت معرفتهم وغزر علمهم فإذا أضيف ذلك إلى علم الله سبحانه فما أتوا من العلم إلا قليلا لكن ينبغى أن يعلم أن الحضرة الإلهية محيطة بكل ما فى الوجود إذ ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله فالكل من الحضرة الإلهية كما أن جميع أرباب الولايات فى المعسكر حتى الحراس هم من المعسكر فهم من جملة الحضرة السلطانية وأنت لا تفهم الحضرة الإلهية إلا بالتمثيل إلى الحضرة السلطانية فاعلم أن كل ما فى الوجود داخل فى الحضرة الإلهية ولكن كما أن السلطان له فى مملكته قصر خاص وفى فناء قصره ميدان واسع ولذلك الميدان عتبة يجتمع عليها جميع الرعايا ولا يمكنون من مجاوزة العتبة ولا إلى طرف الميدان ثم يؤذن لخواص المملكة فى مجاوزة العتبة ودخول الميدان والجلوس فيه على تفاوت فى القرب والبعد بحسب مناصبهم وربما لم يطرق إلى القصر الخاص إلا الوزير وحده ثم إن الملك يطلع الوزير من أسرار ملكه على ما يريد ويستأثر عنه بأمور لا يطلعه عليها فكذلك فافهم من هذا المثال تفاوت الخلق فى القرب والبعد من الحضرة الإلهية فالعتبة التى هى آخر الميدان موقف جميع العوام ومردهم لا سبيل لهم إلى مجاوزتها فإن جاوز واحدهم استوجبوا الزجر والتنكيل وأما العارفون فقد جاوزوا العتبة وانسرحوا فى الميدان ولهم فيه جولان على حدود مختلفة فى القرب والبعد وتفاوت ما بينهم كثير وإن اشتركوا فى مجاوزة العتبة وتقدموا على العوام المفترشين وأما حظيرة القدس فى صدر الميدان فهى أعلى من أن يطأها أقدام العارفين وأرفع من أن يمتد إليها أبصار الناظرين بل لا يلمح ذلك الجناب الرفيع صغير وكبير إلا غض من الدهشة والحيرة طرفه فانقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير فهذا ما يجب على العامى أن يؤمن به جملة وإن لم يحط به تفصيلا فهذه هى الوظائف السبع الواجبة على عوام الخلق فى هذه الأخبار التى سألت عنها وهى حقيقة مذهب السلف وأما الآن فنشتغل بإقامة الدليل على أن الحق هو مذهب السلف.

الباب الثانى

فى

إقامة البرهان على أن الحق مذهب السلف

وعليه برهان عقلى وسمعى أما العقلى فاثنان كلى وتفصيلى، أما البرهان الكلى على أن الحق مذهب السلف فينكشف بتسليم أربعة أصول هى مسلمة عند كل فاعل.

الأول: أن أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد بالإضافة إلى حسن المعاد هو النبى ﷺ فإن ما ينتفع به فى الآخرة أو يضر لا سبيل إلى معرفته بالتجربة كما عرف الطبيب إذ لا مجال للعلوم التجريبية إلا بما يشاهد على سبيل التكرر ومن الذى رجع من ذلك العالم فإدرك بالمشاهدة ما نفع وضر وأخبر عنه ولا يدرى بقياس العقل فان العقول قاصرة عن ذلك والعقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدى إلى ما بعد الموت ولا يرشد إلى وجه ضرر المعاصى ونفع الطاعات لا سيما على سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع بل أقروا بجملتهم ان ذلك لا يدرك إلا بنور النبوة وهى قوة وراء قوة العقل يدرك بها من أمر الغيب فى الماضى والمستقبل أمور لا على طريق التعرف بالأسباب العقلية وهذا مما اتفق عليه الأوئل من الحكماء فضلا عن الأولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة المقرين بقصور كل قوة سوى هذه القوة.

الأصل الثانى: أنه ﷺ افاض إلى الخلق ما أوحى إليه من صلاح العباد فى معادهم ومعاشهم وأنه ما كتم شيئاً من الوحى وأخفاه وطواه عن الخلق فانه لم يبعث إلا لذلك ولذلك كان رحمة للعالمين فلم يكن متهما فيه وعرف ذلك علما ضروريا من قرائن أحواله فى حرصه على إصلاح الخلق وشغفه بإرشادهم إلى صلاح معاشهم ومعادهم فما ترك شيئا مما يقرب الخلق إلى الجنة ورضاء الخالق إلا دلهم

عليه وأمرهم به وحثهم عليه ولا شيئاً مما يقربهم إلى النار وإلى سخط الله إلا حذرهم منه ونهاهم عنه وذلك فى العلم والعمل جميعا

الأصل الثالث: إا أعرف الناس بمعانى كلامه وأحراهم بالوقوف على كنهه ودرك أسراره الذين شاهدوا الوحى والتنزيل وعاصروه وصاحبوه بل لازموه آناء الليل والنهار متشمرين لفهم معانى كلامه وتلقيه بالقبول للعمل به أولا وللنقل إلى من بعدهم ثانيا وللتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بسماعه وفهمه وحفظه ونشره وهم الذين حثهم رسول الله ﷺ على السماع والفهم والحفظ والأداء فقال «نصر الله إمرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها»[1] الحديث فليت شعرى أيتهم رسول الله ﷺ بإخفائه وكتمانه عنهم حاشا منصب النبوة عن ذلك أويتهم أولئك الأكابر فى فهم كلامه وإدراك مقاصده أو يتهمون فى إخفائه وأسراره بعد الفهم أو يتهمون فى معاندته من حيث العمل ومخالفته على سبيل المكاره مع الاعتراف بتفيهمه وتكليفه فهذه أمور لا يتسع لتقديرها عقل عاقل.

الأصل الرابع: أنهم فى طول عصرهم إلى آخر أعمارهم مادعوا الخلق إلى البحث والتفتيش والتأويل والتعرض لمثل هذه الأمور بل بالغوا فى زجر من خاض فيه وسأل عنه وتكلم به على ما سنحكيه عنهم فلو كان ذلك من الدين أو كان من مدارك الأحكام وعلم الدين لأقبلوا عليه ليلا ونهارا ودعوا إليه أولادهم وأهليهم وتشمروا عن ساق الجد فى تأسيس أصوله وشرح قوانينه تشمر أبلغ من تشمرهم فى تمهيد قواعد الفرائض والمواريث فنعلم بالقطع من هذه الأصول أن الحق ما قالوه والصواب ما رووه لا سيما وقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ «وقال خير الناس قرنى

١- تكلمة الحديث: نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها. فرب حامل فقه غير فقيه. ومن طرق أخرى: فرب مبلغها أوعى من سامع ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه رواه الترمذى وأحمد وأبو داود.

ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[1] وقالﷺ (ستفترق أمتى نيفا وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة فقيل من هم؟ فقال أهل السنة والجماعة فقيل وما أهل السنة والجماعة؟ فقال ما أنا عليه الآن وأصحابى)[2]

البرهان الثانى: وهو التفصيلى فنقول ادعينا أن الحق هو مذهب السلف وأن مذهب السلف هو توظيف الوظائف السبع على عوام الخلق فى ظواهر الاختبار المتشابهة وقد ذكرنا برهان كل وظيفة معها فهو برهان كونه حقا فمن يخالف ليت شعرى أيخالف فى قولنا الأول أن يجب على العامى التقديس للحق عن التشبيه ومشابهة الأجسام أو فى قولنا الثانى أنه يجب عليه التصديق والإيمان بما قاله الرسول عليه السلام بالمعنى الذى أراده أو فى قولنا الثالث أنه يجب عليه الاعتراف بالعجز عن درك حقيقة تلك المعانى أو فى قولنا الرابع أنه يجب عليه السكوت عن السؤال والخوض فيما هو وراء طاقته أو فى قولنا الخامس أنه يجب عليه إمساك اللسان عن تغيير الظواهر بالزيادة والنقصان والجمع والتفريق أو فى قولنا السادس إنه يجب عليه كف القلب عن التذكر فيه والفكر مع عجزه عنه وقد قيل لهم تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق أو قولنا السابع أنه يجب عليه التسليم لأهل المعرفة من الأنبياء والأولياء والعلماء الراسخين فهذه أمور بيانها برهانها ولا يقدر أحد على جحدها أو إنكارها إن كان من أهل التمييز فضلا عن العلما والعقلاء فهذه هى البراهين العقلية

١- الحديث رواه البخارى ٥- ١٩٠ فى الشهادات وفى فضائل أصحاب النبى ﷺ، وفى الأيمان والنذور، ومسلم رقم ٢٥٣٥ فى فضائل الصحابة، والترمذى رقم ٢٢٢٢ فى الفقه باب ما جاء فى القرن الثالث، ورقم ٢٣٠٣ فى الشهادات وأبو داود رقم ٤٦٥٧ فى السنه والنسائى ٧-١٧، ١٨ فى الايمان.

٢- الحديث رواه أبو داود فى السنة ١، والترمذى أيمان ١٨، وابن ماجه فى الفتن١٧، وأحمد بن حنبل ٢-٣٣٢، ١٤٥٣ - ولفظه عند ابن ماجة: « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقه، فإحدى وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة، والذى نفس محمد بيده لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة فى الجنة واثنتان وسبعون فى النار قيل يا رسول الله من هم..... قال: الجماعة.

النمط الثاني: البرهان السمعي على ذلك وطريقه أن نقول الدليل على أن الحق مذهب السلف أن نقيضه بدعة والبدعة مذمومة وضلالة والخوض من جهة العوام فى التأويل والخوض بهم فيه من جهة العلماء بدعة مذمومة وكان نقيضه وهو الكف عن ذلك سنة محمودة فههنا ثلاثة أصول

أحدها: أن البحث والتفتيش والسؤال عن هذه الأمور بدعة

والثاني: أن كل بدعة فهى مذمومة

والثالث: أن البدعة اذا كانت مذمومة كان نقيضها وهى السنة القديمة محمودة ولا يمكن النزاع فى شيء من هذه الأصول فإذا سلم ذلك ينتج إن الحق مذهب السلف فإن قيل فبم تنكرون على من يمنع كون البدعة مذمومة أو يمنع كون البحث والتفتيش بدعة فينازع فى هذين وإن لم ينازع فى الثالث لظهوره فنقول الدليل على إثبات الأصل الأول من كون البدعة مذمومة اتفاق الأمة قاطبة على ذم البدعة وزجر المبتدع وتعيير من يعرف بالبدعة وهذا مفهوم على الضرورة من الشرع وذلك غير واقع فى محل الظن فذم رسول الله ﷺ البدعة علم بالتواتر بمجموع أخبار يفيد العلم القطع جملتها وإن كان الاحتمال يتطرق إلى آحادها وذلك كعلمنا بشجاعة على رضى الله عنه وسخاوة حاتم وحب رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها وما يجرى مجراه فأنه علم قطعا بأخبار آحاد بلغت فى الكثرة مبلغا لا يحتمل كذب ناقليها وإن لم تكن آحاد تلك الأخبار متواترة وذلك مثل ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار»[1] وقال ﷺ (اتبعوا ولا تبتدعوا

١- هذا جزء من حديث طويل عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كانها موعظة مودع فأوصنا قال: أوصيكم بتقوى الله
=

وإنما هلك من كان قبلكم لما ابتدعوا فى دينهم وتركوا سنن أنبيائهم وقالوا بآرائهم فضلوا وأضلوا) وقال: عليه السلام: إذا مات صاحب بدعة فقد فتح على الإسلام فتح. وقال عليه السلام: من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعاد على هدم الإسلام. وقال عليه السلام من أعرض عن صاحب بدعة بغضا له فى الله ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ومن انتهر صاحب بدعة رفع الله له مائة درجة ومن سلم على صاحب بدعة أو لقيه بالبشر أو استقبله بما يسره فقد استخف بما أنزل على محمد ﷺ وقال ﷺ (ان الله لا يقبل لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا زكاة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا ويخرج من الإسلام كما يخرج السهم من الرمية أو كما تخرج الشعرة من العجين) فهذا وأمثاله مما يجاوز حد الحصر أفاد علما ضروريا بكون البدعة مذمومة فإن قيل سلمنا أن البدعة مذمومة ولكن ما دليل الأصل الثانى وهو أن هذه بدعة فإن البدعة عبارة عن كل محدث فلم قال الشافعى رضى الله عنه الجماعة فى التراويح بدعة وهى بدعة حسنة وخوض الفقهاء فى تفاريع الفقه ومناظرتهم فيها مع ما أبدعوه من نقض وكسر وفساد وضع وتركيب ونحوه من فنون مجادلة وإلزام كل ذلك مبتدع لم يؤثر عن الصحابة شئ من ذلك فدل على أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة مأثورة ولا نسلم أن هذا رافع لسنة ثابتة لكنه محدث ما خاض فيه الأولون إما لاشتغالهم بما هو أهم منه وإما لسلامة القلوب فى العصر الأول عن الشكوك والترددات فاستغنوا لذلك وخاض فيه من بعدهم لمسيس الحاجة حيث حدثت الأهواء والبدع إلى إبطالها وإفحام منتحلها

=

والسمع والطاعة وان تامر عليكم عبد وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة..

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح. الترغيب والترهيب ج١ / ص٧١

الجواب: أما ما ذكرتموه من أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة قديمة هو الحق وهذا بدعة رفعت سنة قديمة اذ كان سنة الصحابة المنع من الخوض فيه وزجر من سأل عنه والمبالغة فى تأديبه ومنعه بفتح باب السؤال عن هذه المسائل والخوض بالعوام فى غمرة هذه المشكلات على خلاف ما تواتر عنهم وقد صح ذلك عن الصحابة بتواتر النقل عند التابعين من نقلة الآثار وسير السلف حجة لا يتطرق إليها ريب وشك كما تواتر خوضهم فى مسائل الفرائض ومشاورتهم فى الوقائع الفقهية وحصل العلم به أيضا بأخبار آحاد لا يتطرق الشك إلى مجموعها كما نقل عن عمر رضى الله عنه أنه سأل سائل عن آيتين متشابهتين فعلاه بالدرة وكما روى أنه سأله سائل عن القرآن أهو مخلوق أم لا؟ فتعجب عمر من قوله فأخذ بيده حتى جاء به إلى على رضى الله عنه فقال يا أبا الحسن استمع ما يقول هذا الرجل قال وما يقول يا أمير المؤمنين؟ فقال الرجل سألته عن القرآن أمخلوق هو أم لا؟ فوجم لها رضى الله عنه وطأطأ رأسه ثم رفع رأسه وقال سيكون لكلام هذا نبأ فى آخر الزمان ولو وليت من أمره ما وليت لضربت عنقه وقد روى أحمد بن حنبل هذا الحديث عن أبى هريرة فهذا قول على بحضور عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم ولم يقولا له ولا أحد ممن بلغه ذلك من الصحابة ولا عرف على رضى الله عنه فى نفسه أن هذا سؤال عن مسألة دينية وتعرف لحكم كلام الله تعالى وطلب معرفة لصفة القرآن الذى هو معجزة دالة على صدق الرسول بل هو الدليل المعرف لأحكام التكليف فلم يستوجب طالب المعرفة هذا التشديد فانظر إلى فراسة على وإشرافه على أن ذلك قرع لباب الفتنة وأن ذلك سينتشر فى آخر الزمان الذى هو موسم الفتن ومطيتها بوعد رسول الله ﷺ وانظر إلى تشديده وقوله ولو وليت لضربت عنقه فمثل أولئك السادة الأكابر الذين شاهدوا الوحى والتنزيل واطلعوا على أسرار الدين وحقائقه وقد قال ﷺ فى أحدهما (لو أبعث لبعثت يا عمر)[1] وقال فى

١- ذكر الشيخ محمد الحوت البيروتى بانه موضوع ونص عليه الحافظ ابن حجر، أسنى المطالب ص ١٧٨.

الثانى أنا مدينة العلم وعلى بابها[1] يزجرون السائل عن مثل هذا السؤال ثم يزعم من بعدهم من المشغوفين بالكلام والمجادلة وممن لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مسد أحدهم ولا نصيفه أن الحق والصواب قبول هذا السؤال والخوض فى الجواب وفتح هذا الباب ثم يعتقد فيه أنه محق وفى عمر وعلى أنهما مبطلان هيهات ما أبعد عن التحصيل وما أخلى عن الدين من قاس الملائكة بالحدادين ويرجح المجادلين على الأئمة الراشدين والسلف فإذا قد عرف على القطع أن هذه بدعة مخالفة لسنة السلف لا كخوض الفقهاء فى التفاريع والتفاصيل فإنه ما نقل عنهم زجر عن الخوض فيه بل إمعانهم فى الخوض وأما ما أبدع من فنون المجادلات فهى بدعة مذمومة عند أهل التحصيل ذكرنا وجه ذمها فى كتاب قواعد العقائد من كتب الإحياء وأما مناظراتهم إن كان القصد منها التعاون على البحث عن مأخذ الشرع ومدرك الأحكام فهى سنة السلف ولقد كانوا يتشاورون ويتناظرون فى المسائل الفقهية كما نقل فى مسألة الجد وميراث الأم مع الزوج والأب ومسائل سواها نعم إن أبدعوا ألفاظا وعبارات للتنبيه على مقاصدهم الصحيحة فلا حرج فى العبارات بل هى مباحة لمن يستعيرها ويستعملها وإن كان مقصدهم المذموم من النظر لإقحام دون الإعلام والإلزام دون الاستعلام فذلك بدعة على خلاف السنة المأثورة.

١– هذا حديث ضعيف، بل موضوع عند أهل المعرفة بالحديث لكن قد رواه الترمذى وغيره. ومع هذا فهو كذب.

ورواه الحاكم فى المستدرك، والطبرانى فى الكبير، وأبو الشيخ فى السنة، وغيرهم، كلهم عن ابن عباس مرفوعا مع زيادة: فمن أتى العلم فليأت الباب.

ورواه الترمذى وأبو نعيم وغيرهما عن على بلفظ أن النبى ﷺ قال: «أنا دار الحكمة، وعلى بابها».

وهذا حديث مضطرب غير ثابت كما قاله الدراقطنى فى العلل، وقال الترمذى منكر، وقال البخارى ليس له وجه صحيح، ونقل الخطيب البغدادى عن يحيى بن معين أنه قال: أنه كذب لا أصل له.

وقال الحاكم فى الحديث الأول: أنه صحيح الإسناد لكن ذكره ابن الجوزى بوجهيه فى الموضوعات ووافقه الذهبى وغيره. وقال أبو زرعه: كم خلق افتضحوا فيه».

وقال أبو حاتم ويحيى بن سعيد: لا أصل له لكن قال فى الدرر نقلا عن أبى سعيد العلائى الصواب أنه حسن باعتبار تعدد طرقه لا صحيح ولا ضعيف، فضلا أن يكون موضوعا وكذا قال: الحافظ ابن حجر فى فتوى له، قال: وبسطت كلاما مهما فى التعقيبات على الموضوعات. ا.هـ

الباب الثالث

فى

فصول متفرقة وأبواب نافعة فى هذا الفن

إن قال قائل ما الذى دعا رسول الله ﷺ إلى إطلاق هذه الألفاظ الموهمة مع الاستغناء عنها أكان لا يدرى أنه يوهم التشبيه ويغلط الخلق ويسوقهم إلى اعتقاد الباطل فى ذات الله تعالى وصفاته وحاشا منصب النبوة أن يخفى عليه ذلك أو عرف لكن لم يبال بجهل الجهال وضلالة الضلال وهذا أبعد وأشنع لأنه بعث شارحا لا مبهما ملبسا ملغزا وهذا إشكال له وقع فى القلوب حتى جر بعض الخلق إلى سوء الاعتقاد فيه فقالوا لو كان نبيا لعرف الله ولو عرفه لما وصفه بما يستحيل عليه فى ذاته وصفاته ومالت طائفة أخرى إلى اعتقاد الظواهر وقالوا لو لم يكن حقا لما ذكره كذلك مطلقا ولعدل عنها إلى غيرها أو قرنها بما يزيل الإبهام عنها فما سبيل حل هذا الاشكال العظيم.

الجواب: إن هذا الإشكال منحل عند أهل البصيرة وبيانه أن هذه الكلمات ما جمعها رسول الله ﷺ دفعة واحدة وما ذكرها وانما جمعها المشبهة وقد بينا أن لجمعها من التأثير فى الإبهام والتلبيس على الأفهام ما ليس لآحادها المفرقة وانما هى كلمات لهج بها فى جميع عمره فى أوقات متباعدة وإذا اقتصر منها على ما فى القرآن والأخبار المتواترة رجعت إلى كلمات يسيرة معدودة وإن أضيفت إليها الأخبار الصحيحة فهى أيضا قليلة وإنما كثرت الروايات الشاذة الضعيفة التى لا يجوز التعويل عليها ثم ماتواتر منها إن صح نقلها عن العدول فهى آحاد كلمات وما ذكر ﷺ كلمة منها إلا مع قرائن وإشارات يزول معها إيهام التشبيه وقد أدركها الحاضرون المشاهدون فإذا نقل الألفاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الإيهام وأعظم القرائن فى زوال الإيهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول هذه الظواهر

ومن سبقت معرفته بذلك كانت تلك المعرفة ذخيرة له راسخة فى نفسه مقارنة لكل ما يسمع فينمحق معه الإيهام انمحاقا لا يشك فيه ويعرف هذا بأمثلة

الأول: أنه ﷺ سمى الكعبة بيت الله تعالى وإطلاق هذا يوهم عند الصبيان وعند من تقرب درجتهم منهم أن الكعبة وطنه ومثواه لكن العوام الذين اعتقدوا أنه فى السماء وان استقراره على العرش ينمحق فى حقهم هذا الإيهام على وجه لا يشكون فيه فلو قيل لهم ما الذى دعا رسول الله ﷺ إلى إطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل إلى السامع أن الكعبة مسكنه لبادروا بأجمعهم وقال هذا إنما يوهم فى حق الصبيان والحمقى أما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه فلا يشك عند سماع هذا اللفظ أنه ليس المراد به أن البيت مسكنه ومأواه بل يعلم عن البديهة أن المراد بهذه الإضافة تشريف البيت أو معنى سواه غير ما وضع له لفظ البيت المضاف إلى ربه وساكنه أليس كان اعتقاده أنه على العرش قرينة إفادته علما قطعيا بانه ما أريد بكون الكعبة بيته أنه مأواه وأن هذه إنما يوهم فى حق من لم يسبق إلى هذه العقيدة فكذلك رسول الله ﷺ خاطب بهذه الألفاظ جماعة سبقوا إلى علم التقديس ونفى التشبيه وأنه منزه عن الجسمية وعوارضها وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للإيهام لا يبقى معه شك وإن جاز أن يبقى لبعضهم تردد فى تأويله وتعيين المراد به من جملة ما يحتمله اللفظ ويليق بجلال الله تعالى

المثال الثانى: إذا جرى لفقيه فى كلامه لفظ الصورة بين يدى الصبى أو العامى فقال صورة هذه المسألة كذا وصورة الواقعة كذا ولقد صورت للمسألة صورة فى غاية الحسن ربما توهم الصبى أو العامى الذى لايفهم معنى المسألة أن المسألة شئ له صورة وفى تلك الصورة أنف وفم وعين على ما عرفه واشتهر عنده أما من عرف حقيقة المسألة وأنها عبارة عن علوم مرتبة ترتيبا مخصوصا فهل يتصور أن يفهم عينا وأنفا وفما كصورة الأجسام هيهات بل يكفيه معرفته بأن المسألة منزهة عن الجسمية وعوارضها فكذلك معرفة نفى الجسمية عن الإله

وتقدسه عنها تكون قرينة فى قلب كل مستمع مفهمة لمعنى الصورة فى قوله خلق الله آدم على صورته ويتعجب العارف بتقديسه عن الجسمية ممن يتوهم لله تعالى الصورة الجسمية كما يتعجب ممن يتوهم للمسألة صورة جسمانية

المثـال الثـالث: إذا قال القائل بين يدى الصبى بغداد فى يد الخليفة ربما يتوهم أن بغداد بين أصابعه وأنه قد احتوى عليها براحته كما يحتوى على حجره ومدره وكذلك كل عامى لم يفهم المراد بلفظ بغداد أما من علم أن بغداد عبارة عن بلدة كبيرة هل يتصور أن يخطر له ذلك أو يتوهم وهل يتصور أن يعترض على قائله ويقول له لماذا قلت بغداد فى يد الخليفة وهذا يوهم خلاف الحق ويفضى إلى الجهل حتى يعتقد أن بغداد بين أصابعه بل يقال له يا سليم القلب هذا انما يوهم الجهل عند من لا يعرف حقيقة بغداد فأما من علمه فبالضرورة يعلم أنه ما أريد بهذه اليد العضو المشتمل على الكف والأصابع بل معنى آخر ولا يحتاج فى فهمه إلى قرينة سوى هذه المعرفة فكذلك جميع الألفاظ الموهمة فى الأخبار يكفى فى دفع إيهامها قرينة واحدة وهى معرفة الله وأنه ليس بجسم وليس من جنس الأجسام وهذا مما افتتح رسول الله ﷺ بيانه فى أول بعثته قبل النطق بهذه الألفاظ

المثـال الرابع: قال رسول الله ﷺ فى نسائه « أطولكن يدا أسرعكن لحاقا بى » فكان بعض نسوته يتعرف الطول بالمساحة ووضع اليد على اليد حتى ذكر لهن أنه أراد بذلك السماحة فى الجود دون الطول للعضو وكان رسول الله ﷺ ذكر هذه اللفظة مع قرينة أفهم بها إرادة الجود بالتعبير بطول اليد عنه فلما نقل اللفظ مجردا عن قرينته حصل الإيهام فهل كان لأحد أن يعترض على رسول الله ﷺ فى إطلاقه لفظا جهل بعضهم معناه إنما ذلك لأنه أطلق إطلاقا مفهما فى حق الحاضرين مقرونا مثلا بذكر السخاوة والناقل قد ينقل اللفظ كما سمعه ولا ينقل القرينة أو

١- سورة البقرة آية (٢٢)

كان بحيث لا يمكن نقلها أو ظن لا حاجة إلى نقلها وأن من يسمع يفهمه كما فهمه هو لما سمعه فربما لا يشعر أن فهمه انما كان بسبب القرينة فلذلك يقتصر على نقل اللفظ فبمثل هذه الأسباب بقيت الألفاظ مجردة عن قرائنها فقصرت عن التفهيم مع أن قرينة معرفة التقديس بمجردها كافية في نفي الإيهام وإن كانت ربما لا تكفي في تعيين المراد به فهذه الدقائق لا بد من التنبه لها.

المثال الخامس: إذا قال القائل بين يدي الصبي ومن يقرب منه درجة ممن لم يمارس الأحوال ولا عرف العادات في المجالسات فلان دخل مجمعا وجلس فوق فلان ربما يتوهم السامع الجاهل الغبي أن جلس على رأسه أو على مكان فوق رأسه ومن عرف العادات وعلم أن ما هو أقرب إلى الصدر أعلى في الرتبة وأن الفوق عبارة عن العلو يفهم منه أنه جلس بجنبه لا فوق رأسه لكن جلس أقرب إلى الصدر فالاعتراض على من خاطب بهذا الكلام أهل المعرفة بالعادات من حيث أنه يجهله الصبيان أو الأغبياء اعتراض باطل لا أصل له وأمثلة ذلك كثيرة فقد فهمت على القطع بهذه الامثلة أن هذه الألفاظ الصريحة انقلبت مفهوماتها عن أوضاعها الصريحة بمجرد قرينة ورجعت تلك القرائن إلى معارف سابقة ومقترنة فكذلك هذه الظواهر الموهمة انقلبت عن الإيهام بسبب تلك القرائن الكثيرة التي بعضها هي المعارف والواحدة منها معرفتهم أنهم لم يؤمروا بعبادة الأصنام وأن من عبد جسما فقد عبد صنما كان الجسم صغيرا أو كبيرا قبيحا أو جميلا سافلا أو عاليا على الأرض أو على العرش وكان نفي الجسمية ونفي لوازمها معلوما لكافتهم على القطع بإعلام رسول الله ﷺ المبالغة في التنزيه بقوله ليس كمثله شئ وسورة الإخلاص وقوله ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**﴾[1] وبالفاظ كثيرة لا حصر لها مع قرائن قاطعة لا يمكن حكايتها وعلم ذلك علما لا ريب فيه وكان ذلك كافيا في تعريفهم استحالة يد هي عضو مركب من لحم وعظم وكذا في سائر الظواهر لأنها لا تدل إلا على الجسمية وعوارضها لو أطلق على جسم واذا أطلق على غير الجسم علم

ضرورة انه ما أريد به ظاهره بل معنى آخر مما يجوز على الله تعالى ربما يتعين ذلك المعنى وربما لا يتعين فهذا مما يزيل الإشكال فإن قيل فلم لم يذكرها بألفاظ ناصة عليها بحيث لا يوهم ظاهرها جهلا ولا فى حق العامى والصبى قلنا لأنه إنما كلم الناس بلغة العرب وليس فى لغة العرب ألفاظ ناصة على تلك المعانى فكيف يكون فى اللغة لها نصوص وواضع اللغة لم يفهم تلك المعانى فكيف وضع لها النصوص بل هى معان أدركت بنور النبوة خاصة أو بنور العقل بعد طول البحث وذلك أيضا فى بعض تلك الأمور لا فى كلها فلما لم يكن لها عبارات موضوعة كان استعارة الألفاظ من موضوعات اللغة ضرورة كل ناطق بتلك اللغة كما أنا لا نستغنى عن أن نقول صورة هذه المسألة كذا وهى تخالف صورة المسألة الأخرى وهى مستعارة من الصورة الجسمانية لكن واضع اللغة لما لم يضع لهيئة المسألة وخصوص ترتيبها اسما نصا إما لأنه لم يفهم المسألة أو فهم لكن لم تحضره أو حضرته لكن لم يضع لها نصا خاصا اعتمادا على إمكان الاستعارة أو لانه علم أنه عاجز عن أن يضع لكل معنى لفظا خاصا ناصا لأن المعانى غير متناهية العدد والموضوعات بالقطع يجب أن تتناهى فتبقى معان لا نهاية لها يجب أن يستعار اسمها من الموضع فاكتفى بوضع البعض وسائر اللغات أشد قصورا من لغة العرب فهذا وأمثاله من الضرورة يدعو إلى الاستعارة حيث لا ضرورة اعتمادا على القرائن فإنا لا نفرق بين أن يقول القائل جلس زيد فوق عمرو وبين أن يقول جلس أقرب منه إلى الصدر وأن بغداد فى ولاية الخليفة أو فى يده اذا كان الكلام مع العقلاء وليس فى الإمكان حفظ الألفاظ عن أفهام الصبيان والجهال فالاشتغال بالاحتراز عن ذلك ركاكة فى الكلام وسخافة فى العقل وثقل فى اللفظ فإن قيل فلم لم يكشف الغطاء عن المراد بإطلاق لفظ الإله ولم يقل انه موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا هو داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ولا هو فى مكان ولا هو فى جهة بل

الجهات كلها خالية عنه فهذا هو الحق عند قوم والإفصاح عنه كذلك كما فصح عنه المتكلمون ممكن ولم يكن فى عبارتهﷺ قصور ولا فى رغبته فى كشفه الحق فتور ولا فى معرفته نقصان قلنا من رأى هذا حقيقة الحق اعتذر بان هذا لو ذكره لنفر الناس عن قبوله ولبادروا بالإنكار وقالوا هذا عين المحال ووقعوا فى التعطيل ولا خير فى المبالغة فى تنزيه ينتج التعطيل فى حق الكافة إلا الأقلين وقد بعث رسول اللهﷺ داعيا للخلق إلى سعادة الآخرة رحمة للعالمين كيف ينطق بما فيه هلاك الأكثرين بل أمر أن لا يكلم الناس إلا على قدر عقولهم وقالﷺ (من حدث الناس بحديث لا يفهمونه كان فتنة على بعضهم)[1] أو لفظ هذا معناه فإن قيل إن كان فى المبالغة فى التنزيه خوف التعطيل بالإضافة إلى البعض ففى استعماله الألفاظ المهمة خوف التشبيه بالإضافة إلى البعض قلنا بينهما فرق من وجهين أحدهما أن ذلك يدعوا إلى التعطيل فى حق الاكثرين وهذا يعود إلى التشبيه فى حق الأقلين وأهون الضررين أولى بالاحتمال وأعم الضررين أولى بالاجتناب والثانى إن علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل إذ يكفى أن يقال مع هذه الظواهر ليس كمثله شيء[2] وأنه ليس بجسم ولا مثل الأجسام وأما إثبات موجود فى الاعتقاد على ما ذكرناه من المبالغة فى التنزيه شديد جدا بل لا يقبله واحد من الألف لا سيما الأمة الامية العربية فإن قيل فعجز الناس عن الفهم هل يمهد عذر الأنبياء فى أن يثبتوا فى عقائدهم أمورا على خلاف ما هى عليها ليثبت فى اعتقادهم أصل الالهية حتى توهموا عندهم مثلا أن الله مستقر على العرش وأنه فى السماء وأنه فوقهم فوقية المكان قلنا معاذ الله أن نظن ذلك أو يتوهم بنبى صادق أن يصف الله

١- رواه العقيلى فى الضعفاء، وابن السنى، وأبو نعيم فى الرياء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

وللإمام مسلم فى مقدمة صحيحة موقوفاً على ابن مسعود رضى الله عنه وله شاهد يقويه، أخرجه البخارى موقوفا ورفعه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم ولفظه:

« كلموا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله »

٢- سورة الشورى آية (١١)

بغير ما هو متصف به وأن يلقى ذلك فى اعتقاد الخلق فإنما تأثير قصور الخلق فى أن يذكر لهم ما يطيقون فهمه ومالا يفهمونه فكيف عنه فلا يعرفهم بل يمسك عنهم وانما ينطق به مع من يطيقه ويفهمه ويحسن فى ذلك علاج عجز الخلق وقصورهم ولا ضرورة فى تفهيمهم خلاف الحق قصدا لا سيما فى صفات الله نعم به ضرورة فى استعمال االالفاظ مستعارة ربما يغلط الأغبياء فى فهمها وذلك لقصور اللغات وضرورة المحاورات فأما تفهيمهم خلاف الحق قصدا إلى التجهيل فمحال سواء فرض فيه مصلحة أو لم تفرض فان قيل قد جهل أهل التشبيه جهلا يستند إلى ألفاظه وعلم أن ألفاظه فى الظواهر تفضى إلى جهلهم فمهما جاء بلفظ مجمل ملبس فرضى به لم يفترق الحال بين أن يكون مجردا قصده إلى التجهيل وبين أن لا يقصد التجهيل مهما حصل التجهيل وهو عالم به وراض قلنا لا نسلم أن جهل أهل التشبيه حصل بألفاظه بل بتقصيرهم فى كسب معرفة التقديس وتقديمه على النظر فى الألفاظ ولو حصلوا تلك المعرفة أولا وقدموها لما جهلوها كما أن من حصل علم التقديس لم يجهل عند سماعه صورة المسألة وإنما الواجب عليهم تحصيل هذا العلم ثم مراجعة العلماء اذا شكوا فى ذلك ثم كف النفس عن التأويل والزامها التقديس اذا رسم لهم العلماء فاذا لم يفعلوا جهلوا وعلم الشارع بأن الناس فى طباعهم الكسل والتقصير والفضول بالخوض فيما ليس من شأنهم ليس رضا بذلك ولا سعيا فى تحصيل الجهل لكنه رضا بقضاء الله وقدره فى قسمته حيث قال ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[1] وقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[2] ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[3] فهذا هو القهر الإلهى فى فطرة الخلق ولا قدرة للأنبياء فى تغيير سنته التى لا تبديل لها

١- سورة هود (١١) آية (١١٩) ٢- سورة هود (١١) آية (١١٨) ٣- سورة يونس (١٠) آية (١٠٠)

لعلك تقول الكف عن السؤال والامساك عن الجواب من أين يغنى وقد شاعت فى البلاد هذه الاختلافات وظهرت التعصبيات فكيف سبيل الجواب إذا سئل عن هذه المسائل

قلنا : الجواب ما قاله مالك رضى الله عنه فى الاستواء إذ قال الاستواء معلوم الحديث فيذكر هذا الجواب فى كل مسئلة سأل عنها العوام ليحسم سبيل الفتنة فإن قيل فاذا سئل عن الفوق واليد والإصبع فبم يجيب؟

قلنا : الجواب : أن يقال الحق فيه ما قاله الرسول ﷺ وقاله الله تعالى وقد صدق حين قال الرحمن على العرش استوى فيعلم قطعا أنه ما أراد الجلوس والاستقرار الذى هو صفة الأجسام ولا تدرى ما الذى أراده ولم نكلف معرفته وصدق حيث قال وهو القاهر فوق عباده وفوقية المكان محال فإنه كان قبل المكان فهو الآن كما كان وما أراده فلسنا نعرفه وليس علينا ولا عليك أيها السائل معرفته فكذلك نقول ولا يجوز إثبات اليد والأصبع ومطلقا بل يجوز النطق بما نطق به رسول الله ﷺ على الوجه الذى نطق به من غير زيادة ونقصان وجمع وتفريق وتأويل وتفصيل كما سبق فنقول صدق حيث قال (خمر طينة آدم بيده)[1] وحيث قال (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن)[2] فنؤمن بذلك ولا نزيد ولا ننقص وننقله كما روى ونقطع بنفى العضو المركب من اللحم والعصب واذا قيل القرآن قديم أو مخلوق قلنا هو غير مخلوق لقوله ﷺ (القرآن كلام الله غير مخلوق)[3] فإن قال الحروف قديمة أم لا؟ قلنا الجواب فى هذه المسألة لم يذكرها

---

١ ، ٢- سبق تخريجهما .

٣- **فتنة القول بخلق القرآن :**

إن أول من قال بخلق القرآن فى تاريخ الإسلام الجعد بن درهم فى العصر الأموى . ولما فشت مقالته قتله خالد بن عبدالله القسرى يوم الأضحى بالكوفة وقد اتى به مشدوداً فى الوثاق عند صلاة العيد .

=

وقال مثل هذا القول الجهم بن صفوان . وقد نفى صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى - تنزيلاً له عن الحوادث وصفاتها - وحكم لذلك بان القرآن مخلوق . وليس بقديم ولما جاء المعتزلة، انكروا ان يكون الله سبحانه وتعالى متكلماً، وما ورد فى القرآن من الله سبحانه وتعالى كلم موسى تكليماً أولوه بانه سبحانه وتعالى خلق الكلام فى الشجرة، فهم لا يصفون الله بانه متكلم ولكنهم يعتقدون ان الله سبحانه وتعالى يخلق الكلام كما يخلق كل شيء، وعلى هذا الاعتقاد بنوا دعواهم ان القرآن مخلوق لله سبحانه وتعالى .

ولقد خاض المعتزلة فى حديث خلق القرآن خوضاً شديداً فى العصر العباسى وشاركهم بعض الفقهاء، وكان بشر بن غياث المريسى من المصرين على ذلك القول . وقد نهاه ابو يوسف أستاذه وصاحب أبى حنيفة فلم ينته فطرده من مجلسه .

ولقد ابتدأ خوض المعتزلة يشتد فى عهد الرشيد فاخذوا يدعون الناس إلى ذلك فحبس طائفة من المجادلين من هؤلاء المعتزلة .

وشقيقه القول بخلق القرآن :

لماذا اختلف المسلمون فى ذلك : وما الذى جعلهم يتجادلون فى هذه القضية الواضحة ويتخطى الجدال والمخاصمة . ويجيب عن ذلك شارح الطحاوية . ويحصر اقوال المجادلين فى هذه المسألة على تسعة أقوال :

قول الصابئة والمتفلسفة : ان كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعانى، أما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره .

المعتزلة : انه مخلوق خلقه الله منفصلاً - ابن كلاب ومن وافقه كالاشعرى وغيره : أنه معنى واحد قائم بذات الله هو الامر والنهى والخبر والاستخبار وان عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة .

- الكرامية : انه حروف واصوات . لكن تكلم الله بها بعد ان لم يكن متكلماً .

- صاحب المعتبر ويميل إليه الرازى فى المطالب العالية : ان كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته .

- أبو منصور الماتريدى : ان كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه فى غيره .

- ابو المعالى ومن تبعه : أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه فى غيره من الاصوات .

- ائمة الحديث والسنة : أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديماً .

وأهل الملل جميعاً اتفقوا على اثبات الكلام لله تعالى واختلفوا فى تحديد المقصود من كونه متكلما .

كما اختلفوا فى الحكم على كلامه -تعالى- بالحدوث أو القدم وأشهر من تنازعوا فى هذا المقام من الفرق الاسلامية أربع :

– الحنابلة: كلامه –تعالى– حرف وصوت يقومان بذاته –تعالى– وأنه قديم، وقد بالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلاً: الجلد والغلاف قديمان فضلا عن المصحف.

– الكرامية: كلامه –تعالى– حرف وصوت وأنه حادث. وزعموا أنه قائم بذاته –تعالى– لأنهم يجيزون قيام الحوادث بذاته.

– الاشاعرة: أن كلام الله –تعالى– ليس من جنس الاصوات والحروف بل هو صفة أزلية قائمة بذاته –تعالى– منافية للسكوت والآفة. هو به آمر. ناه. مخبر إلى غير ذلك. يدل عليها بالعبارة والكتابة والإشارة، فإذا عبر عنها بالعربية فالقرآن أو بالسريانية فالإنجيل أو بالعبرانية فالتوراة، فالمسمى واحد وان اختلفت العبارات.

مناقشة هذه الآراء:

أن الحنابلة والكرامية اتفقوا على حصر كلام الله –تعالى– فى كونه حروفا واصوات مسموعة خلافا للاشاعرة.

ونرى أن رأى الحنابلة باطل بالضرورة لاعتبارهم الحروف والاصوات قديمة مع كون الحرف الواحد له أول وآخر، وما كان كذلك فهو حادث فكذا المجموع المركب من هذه الحروف يكون حادثا حتما.

– ونرفض رأى الكرامية: لاعتقادهم قيام الكلام مع حدوثه بذاته –تعالى– وقيام الحادث بالقديم مستحيل .إذن فالنزاع أصبح محصوراً بين المعتزلة من جانب والاشاعرة من جانب آخر.

فالمعتزلة يقولون: كلامه –تعالى– هو الاصوات والحروف الحادثة وهى غير قائمة بذاته –تعالى– ومعنى كونه متكلما انه خلق الكلام فى غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل النبى اذن اتفق المعتزلة والاشاعرة على ان كلام الله –تعالى– باعتبار حروف واصوات حادثة وقائمة بغير ذات الله –تعالى.

والاشاعرة يسمون ذلك كلاما لفظيا. واختلفا فى كون الاشاعرة يثبتون لله –تعالى– معنى نفسيا قديما قائماً بذاته –تعالى– ويسمونه كلاما نفسيا. فى حين ان المعتزلة ينكرون تسمية المعنى النفسى كلاما ويردونه للإرادة أو العلم.

والرأى الذى نميل إليه هو: ما ذهب إليه الاشاعرة لكونه الرأى الوسط بين غلو الحنابلة وتقصير المعتزلة...

وعلى ذلك فالقرآن – باعتبارة كلام لله – يطلق بإطلاقين:

الأول: يطلق ويراد به كلام الله النفسى القائم بذاته – تعالى– والمنزه عن الحروف والاصوات. وهو بهذا المعنى قديم فيقال حينئذ: القرآن كلام الله – تعالى. غير مخلوق. اى غير حادث.

الثانى: يطلق ويراد به: الكلام المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى القلوب، المقروء بالالسنة، المسموع بالآذان وهو بهذا المعنى مخلوق اي أنه مخلوق لله –تعالى– وليس من تاليفات المخلوقين، ومادام مخلوقا. فهو حادث.

بالحروف نفس القرآن فالقرآن قديم وان أردت بها غير القرآن وصفات الله تعالى فما سوى الله وصفاته محدث ولا يزيد عليه لان تفهيم العوام حقيقة هذه المسألة عسر جداً فان قالوا قد قال النبى ﷺ (من قرأ حرفا من القرآن فله كذا) فاثبت الحروف للقرآن وصف القرآن بأنه غير مخلوق فلزم منه ان الحروف قديمة قلنا لا نزيد على ما قاله الرسول ﷺ وهو أن القرآن غير مخلوق وهذه مسألة وان كان للقرآن حروف هى مسألة أخرى وأما أن الحروف قديمة فهى مسألة ثالثة ونزد عليه فلا نقول به ولا نزيد على ما قاله الرسول ﷺ فإن زعموا أنه يلزم من المسألتين السابقتين هذه المسألة قلنا هذا قياس وتفريع وقد بينا أن لا سبيل إلى القياس والتفريع بل يجب الاقتصار على ما ورد من غير تفريق وكذلك إذا قالوا عربية القرآن قديمة لأنه قال القرآن قديم وقال أنزلناه قرآنا عربيا فالعربى قديم فيقول أما أن القرآن عربى فحق إذ نطق به القرآن وأما أن القرآن قديم فحق إذ نطق به الرسول ﷺ وأما إن عربية القرآن قديمة فهى مسألة ثالثة لم يرد فيها أنها قديمة فلا يلزم القول بها فعلى هذا الوجه يلجم العوام والحشوية عن التصرف فيه ولزمهم عن القياس والقول باللوازم بل نزيد فى التضييق على هذا ونقول إذا قال القرآن كلام الله غير مخلوق فهذا لا يرخص فى أن يقول القرآن قديم ما لم يرد لفظ القديم اذ فرق بين غير المخلوق والقديم اذ يقال

=

– تلك هى مشكلة خلق القرآن التى تباينت فيها الآراء بين أهل السنة والمعتزلة . والتى ارتبطت بها محنة كبيرة عرفت فى تاريخ الفكر الإسلامى بمحنة الإمام احمد بن حنبل .

وهى فى الحقيقة تعتبر خلافاً غير حقيقى لان المعتزلة لا يطلقون لفظ الكلام الا على المنتظم من الحروف والاصوات، ويرون ان القرآن بهذا المعنى مخلوق .

واهل السنة يعترفون بان القرآن او كلام الله بمعنى الحروف والاصوات حادث إلا إنهم لا يقولون : انه مخلوق إلا فى مجال التعليم تنزيها لكلام الله . فهم إذن متفقون ولا يوجد ما يبرر الخلاف بينهم . واعلم ان السلف – رضوان الله عليهم قد اقتصروا على قولهم كلام الله غير مخلوق وعلينا الاقتداء وعدم الخوض فيما لا طائل تحته . والله أعلم .

كلام فلان غير مخلوق أى غير موضوع وقد يقال المخلوق بمعنى المختلق فلفظ غير مخلوق يتطرق إليه هذا ولا يتطرق إلى لفظ القديم فبينهما فرق ونحن نعتقد قدم القرآن لا بمجرد هذا اللفظ فإن هذا اللفظ لا ينبغى أن يحرف ويبدل ويغير ويصرف بل يلزم أن يعتقد أنه حق بالمعنى الذى أراده وكل من وصف القرآن بأنه مخلوق من غير نقل نص فيه مقصود فقد أبدع وزاد ومال عن مذهب السلف وحاد.

هل الإيمان قديم

فإن قيل من المسائل المعروفة قولهم إن الإيمان قديم فإذا سئلنا عنه فبم نجيب قلنا إن ملكنا زمام الأمر واستولينا على السائل منعناه عن هذا الكلام السخيف الذى لا جدوى له وقلنا إن هذا بدعة وإن كنا مغلوبين فى بلادهم فنجيب ونقول ما الذى أردت بالإيمان؟ ان أردت شيئا من معارف الخلق وصفاتهم فجميع صفات الخلق مخلوقة وان أردت به شيئاً من القرآن أو من صفات الله تعالى فجميع صفات الله تعالى قديمة وإن أردت ما ليس صفة للخلق ولا صفة الخالق فهو غير مفهوم ولا متصور وما لا يفهم ولا يتصور ذاته كيف يفهم حكمه فى القدم والحدوث والأصل زجر السائل والسكوت عن الجواب هذا صفو مقصود مذهب السلف ولا عدول عنه إلا بضرورة وسبيل المضطر ما ذكرنا فان وجدنا ذكيا مستفهما لفهم الحقائق كشفنا الغطاء عن المسألة وخلصناه عن الإشكال فى القرآن وقلنا.

اعلم: أن كل شيء فله فى الوجود أربع مراتب. وجود فى الأعيان، ووجود فى الأذهان، ووجود فى اللسان، ووجود فى البياض المكتوب عليه كالنار مثلا فان لها وجود فى التنور ووجودا فى الخيال والذهن وأعنى بهذا الوجود العلم بنفس النار وحقيقتها ولها وجود فى اللسان وهى الكلمة الدالة عليه أعنى لفظ النار ولها وجود فى البياض المكتوب عليه بالرقوم والإحراق صفة خاصة للنار كالقدم للقرآن

ولكلام الله تعالى والمحرق من هذه الجملة الذى فى التنور دون الذى فى الأذهان وفى اللسان وعلى البياض إذ لو كان المحرق فى البياض أو اللسان لاحترق ولكن لو قيل لنا النار محرقة قلنا نعم فإن قيل لنا كلمة النار محرقة قلنا لا فإن قيل حروف النار محرقة قلنا لا فإن قيل مرقوم هذه الحروف على البياض محرقة قلنا لا، فإن قيل المذكور بكلمة النار والمكتوب بكلمة النار محرق قلنا نعم لأن المذكور والمكتوب بهذه الكلمة ما فى التنور وما فى التنور محرق فكذلك القدم وصف كلام الله تعالى كالإحراق وصف النار وما يطلق عليه اسم القرآن وجوده على أربع مراتب أولها وهى الأصل وجوده قائما بذات الله تعالى يضاهى وجود النار فى التنور﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾[1] ولكن لا بد من هذه الأمثلة فى تفهيم العجزة والقدم وصف خاص لهذا الوجود والثانية وجوده العلمى فى أذهاننا عند التعلم قبل أن ننطق بلساننا ثم وجوده فى لساننا بتقطيع أصواتنا ثم وجوده فى الأوراق بالكتب فإذا سألنا عما فى أذهاننا من علم القرآن قبل النطق به قلنا علمنا صفتنا وهى مخلوقة لكن المعلوم به قديم كما إن علمنا بالنار وثبوت صورتها فى خيالنا غير محرق لكن المعلوم به محرق وأن سألنا عن صوتنا وحركة لساننا ونطقنا قلنا ذلك صفة لساننا فلساننا حادث وصفته توجد بعده وما هو بعد الحادث حادث بالقطع لكن منطوقنا ومذكورنا ومقروءنا بهذه الأصوات الحادثة قديم كما إن ذكرنا حروف النار بلساننا كان المذكور بهذه الحروف محرقا وأصواتنا وتقطيع أصواتنا غير محرق إلا إن يقول قائل حروف النار عبارة عن نفس النار قلنا إن كان كذلك فحروف النار محرقة وحروف القرآن إن كان عبارة عن نفس المقروء فهى قديمة وكذلك المخطوط برقوم النار والمكتوب به محرق لأن المكتوب هو نفس النار أما الرقم الذى هو صورة النار غير محرق لأن فى الأوراق من غير إحراق واحتراق فهذه أربع درجات فى الوجود تشتبه على العوام ولا يمكنهم ادراك تفاصيلها وخاصة كل

١- سورة النحل آية (٦٠)

واحد منهن فلذلك لا نخوض بهم فيها لا لجهلنا بحقيقة هذه الأمور وكنه تفاصيلها أن النار من حيث أنها فى التنور توصف بأنها محرقة وخامدة ومشتعلة ومن حيث أنها فى اللسان يوصف بأنه عجمى وتركى وعربى وكثير الحروف وقليله وما فى التنور لا ينقسم إلى العجمى والتركى والعربى وما فى اللسان لا يوصف بالخمود والاشتعال واذا كان مكتوبا على البياض يوصف بأنه أحمر وأخضر وأسود وأنه بقلم المحقق أو الثلث والرقاع أو قلم النسخ وهو فى اللسان لا يمكن أن يوصف بذلك واسم النار يطلق على ما فى التنور وما فى القلب وما فى اللسان وما على القرطاس لكن باشتراك الاسم فأطلق على ما فى التنور حقيقة وعلى ما فى الذهن من العلم لا بالحقيقة لكن بمعنى أنه صورة محاكية للنار الحقيقى كما أن ما يرى فى المرآة يسمى إنسانا ونارا لا بالحقيقة ولكن بمعنى أنها صورة محاكية للنار الحقيقى والإنسان وما فى اللسان من الكلمة يسمى باسمه بمعنى ثالث وهو أنه دلالة دالة على ما فى الذهن وهذا يختلف بالاصطلاحات والأول والثانى لا اختلاف فيهما وما فى القرطاس يسمى نارا بمعنى رابع وهو أنها رقوم تدل بالاصطلاح على ما فى اللسان ومهما فهم أشتراك اسم القرآن والنار وكل شىء من هذه الأمور الأربعة فاذا ورد فى الخبر أن القرآن فى قلب العبد وأنه فى المصحف وأنه فى لسان القارئ وأنه صفة ذات الله صدق بالجميع وفهم معنى الجميع ولم يتناقض عند الأذكياء وصدق بالجميع مع الاحاطة بحقيقة المراد وهذه أمور جلية دقيقة لا أجلى منها عند الفطن الذكى ولا أدق وأغمض منها عند البليد الغبى فحق البليد أن يمنع من الخوض فيها ويقال له فى القرآن غير مخلوق واسكت ولا تزد عليه ولا تنقص ولا تفتش عنه ولا تبحث وأما الذكى فيروح عن غمه هذا الإشكال فى لحظة ويوصى بأن لا يحدث العامى به حتى لا يكلفه ما ليس فى طاقته وهكذا جميع موضع الإشكالات فى الظواهر فيها حقائق جلية لأرباب البصائر ملتبسة على العميان من العوام فلا ينبغى أن يظن بأكابر السلف عجزهم عن معرفة هذه الحقيقة وإن لم يحرروا ألفاظها تحرير صنعة ولكنهم عرفوه وعرفوا عجز العوام

فسكتوا عنهم وأسكتوهم وذلك عين الحق والصواب ولا أعنى بأكابر السلف الأكابر من حيث الجاه والاشتهار ولكن من حيث الغوص على المعانى والاطلاع على الأسرار وعند هذا ربما انقلب الأمر فى حق العوام واعتقدوا فى الأشهر أنه الأكبر وذلك سبب آخر من أسباب الضلال

فإن قال قائل العامى إذا منع من البحث والنظر لم يعرف الدليل ومن لم يعرف الدليل كان جاهلا بالمدلول وقد أمر الله تعالى كافة عباده بمعرفته أى بالإيمان به والتصديق بوجوده أولا وبتقديسه عن سمات الحوادث ومشابهته غيره ثانيا وبوحدانيته ثالثا وبصفاته من العلم والقدرة ونفوذ المشيئة وغيرها رابعاً هذه الأمور ضرورية فهى إذا مطلوبة وكل علم مطلوب فلا سبيل إلى اقتناصه وتحصيله إلا بشبكة الأدلة والنظر فى الأدلة والتفطن لوجه دلالتها على المطلوب وكيفية إنتاجها وذلك لا يتم إلا بمعرفة شروط البراهين وكيفية ترتيب المقدمات واستنتاج النتائج وينجر ذلك شيئا فشيئا إلى تمام علم البحث واستيفاء علم الكلام إلى آخر النظر فى المعقولات وكذلك يجب على العامى أن يصدق الرسولﷺ فى كل ما جاء به وصدقه ليس بضرورى بل هو بشر كسائر الخلق فلا بد من دليل يميزه عن غيره ممن تحدى بالنبوة كاذباً ولا يمكن ذلك الا بالنظر فى المعجزة ومعرفة حقيقة المعجزة وشروطها إلى آخر النظر فى النبوات وهو لب علم الكلام.

قلنا: الواجب على الخلق الإيمان بهذه الأمور والإيمان عبارة عن تصديق جازم لا تردد فيه ولا يشعر صاحبه بإمكان وقوع الخطأ فيه وهذا التصديق الجازم **يحصل على ست مراتب**

الأولى: وهى قصاها ما يحصل بالبرهان المستقصى المستوفى شروطه المحرر أصوله ومقدماته درجة درجة وكلمة كلمة حتى لا يبقى مجال احتمال وتمكن التباس وذلك هو الغاية القصوى وربما يتفق ذلك فى كل عصر لواحد أو اثنين ممن

ينتهى إلى تلك الرتبة وقد يخلوا العصر عنه ولو كانت النجاة مقصورة على مثل تلك المعرفة لقلت النجاة وقل الناجون.

الثانية: أن يحصل بالأدلة الوهمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة مصدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشناعة إنكارها ونفرة النفوس عن إبداء المراء فيها وهذا الجنس أيضا يفيد فى بعض الأمور وفى حق بعض الناس تصديقا جازما بحيث لا يشعر صاحبه بإمكان خلافه أصلا

الثالثة: أن يحصل التصديق بالأدلة الخطابية أعنى القدرة التى جرت العادة باستعمالها فى المحاورات والمخاطبات الجارية فى العادات وذلك يفيد فى حق الأكثرين تصديقا ببادى الرأى وسابق الفهم إن لم يكن الباطن مشحوناً بالتعصب وبرسوخ اعتقاد على خلاف مقتضى الدليل ولم يكن المستمع مشغوفا بتكلف المماراة والتشكك ومنتجعا بتحديق المجادلين فى العقائد وأكثر أدلة القرآن من هذا الجنس فمن الدليل الظاهر المفيد للتصديق قولهم لا ينتظم تدبير المنزل بمدبرين ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[1] فكل قلب باق على الفطرة غير مشوش بمارة المجادلين بسبق من هذا الدليل إلى فهمه تصديق جازم بوحدانية الخالق لكن لو شوشه مجادل وقال لم يبعد أن يكون العالم بين إلهين يتوافقان على التدبير ولا يختلفان فإسماعه هذا القدر يشوش عليه تصديقه ثم ربما يعسر سل هذا السؤال ودفعه فى حق بعض الأفهام القاصرة فيستولى الشك ويتعذر الرفع وكذلك من الجلى أن من قدر على الخلق فهو على الإعادة أقدر وكما قال ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾[2] فهذا لا يسمعه أحد من العوام ذكى أو غبى الا ويبادر إلى التصديق ويقول نعم ليست الإعادة بأعسر من الابتداء بل هى أهون ويمكن أن يشوش عليه بسؤال ربما يعسر عليه فهم جوابه والدليل المستوفى والذى يفيد

١- سورة الأنبياء آية (٢٢)

٢- سورة يس آية (٧٩)

التصديق بعد تمام الأسئلة وجوابها بحيث لا يبقى للسؤال مجال والتصديق يحصل قبل ذلك.

الرابعة: التصديق لمجرد السماع ممن حسن فيه الاعتقاد بسبب كثرة ثناء الخلق عليه فإن من حسن اعتقاده فى أبيه وأستاذه أو فى رجل من الأفاضل المشهورين قد يخبره عن شيء كموت شخص أو قدوم غائب أو غيره فيسبق إليه اعتقاد جازم وتصديق بما أخبر عنه بحيث لا يبقى لغيره مجال فى قلبه ومستنده حسن اعتقاده فيه فالمجرب بالصدق والورع والتقوى مثل الصديق رضى الله عنه إذا قال قال رسول الله ﷺ كذا فكم من مصدق به جزماً وقابل له قبولا مطلقاً لا مستند لقوله إلا حسن اعتقاده فيه فمثله إذا لقن العامى اعتقاداً وقال له أعلم أن خالق العالم واحد أانه عالم قادر وأنه بعث محمدا ﷺ رسولا بادر إلى التصديق ولم يمازجه ريب ولا شك فى قوله وكذلك اعتقاد الصبيان فى آبائهم ومعلمهم فلا جرم يسمعون الاعتقادات ويصدقون بها ويستمرون عليها من غير حاجة إلى دليل وحجة.

الرتبة الخامسة: التصديق به الذى يسبق اليه القلب عند سماع الشيء مع قرائن أحوال لا تفيد القطع عند المحقق ولكن يلقى فى قلب العوام اعتقادا جازما كما إذا سمع بالتواتر مرض رئيس البلد ثم ارتفع صراخ وعويل من داره ثم يسمع من أحد غلمانه أنه قد مات اعتقد العامى جزماً أنه مات وبنى عليه تدبيره ولا يخطر بباله أن الغلام ربما قال ذلك عن أرجاف سمعه وأن الصراخ والعويل لعله عن غشية أو شدة مرض أو سبب آخر لكن هذه خواطر بعيدة لا تخطر للعوام فتنطبع فى قلوبهم الاعتقادات الجازمة وكم من أعرابى نظر إلى أسارير وجه رسول الله ﷺ وإلى حسن كلامه ولطف شمائله وأخلاقه فآمن به وصدقه جزما لم يخالجه ريب من غير أن يطالبه بمعجزة يقيمها ويذكر وجه دلالتها.

الرتبة السادسة: أن يسمع القول فيناسب طبعه وأخلاقه فيبادر إلى التصديق لمجرد موافقته لطبعه لا من حسن اعتقاد فى قائله ولا من قرينة تشهد له لكن لمناسبة ما فى طباعه فالحريص على موت عدوه وقتله وعزله يصدق جميع ذلك بأدنى إرجاف ويستمر على اعتقاده جازما ولو أخبر بذلك فى حق صديقه أو بشيء يخالف شهوته وهواه توقف فيه أو أباه كل الإباء وهذه أضعف التصديقات وأدنى الدرجات لأن ما قبله استند إلى دليل ما وإن كان ضعيفا من قرينة أو حسن اعتقاد فى المخبر أو نوع من ذلك وهى أمارات يظنها العامى أدلة فتعمل فى حقه عمل الأدلة فإذا عرفت مراتب التصديق فاعلم أن مستند إيمان العوام هذه الأسباب وأعلى الدرجات فى حقه أدلة القرآن وما يجرى مجراه مما يحرك القلب إلى التصديق ولا ينبغى أن يجاوز بالعامى إلى ماوراء أدلة القرآن وما فى معناه من الجليات المسكنة للقلوب المستجرة لها إلى الطمأنينة والتصديق وما وراء ذلك ليس على قدر طاقته وأكثر الناس آمنوا فى الصبا وكان سبب تصديقهم مجرد التقليد للآباء والمعلمين لحسن ظنهم بهم وكثرة ثنائهم على أنفسهم وثناء غيرهم عليهم وتشديدهم النكير بين أيديهم على مخالفيهم وحكايات أنواع النكال النازل بمن لا يعتقد وقولهم إن فلانا اليهودى فى قبره مسخ كلبا وفلان الرافضى انقلب خنزيراً وحكايات منامات وأحوال هذا الجنس تنغرس فى نفوس الصبيان النفرة عنه والميل إلى ضده حتى ينزع الشك بالكلية عن قلبه فالتعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر ثم يقع نشؤه عليه ولا يزال يؤكد ذلك فى نفسه فإذا بلغ استمر على اعتقاده الجازم وتصديقه المحكم الذى لا يخالجه فيه ريب ولذلك ترى أولاد النصارى والروافض والمجوس والمسلمين كلهم لا يبلغون إلا على عقائد آبائهم واعتقاداتهم فى الباطل والحق جازمة لو قطعوا إربا إربا لما رجعوا عنها وهم قط لم يسمعوا عليه دليلاً لا حقيقياً ولا رسمياً وكذا ترى العبيد والإماء يسبون من المشرك ولا يعرفون الإسلام فإذا وقعوا فى أسر المسلمين وصحبوهم مدة ورأوا ميلهم إلى الإسلام مالوا معهم

واعتقدوا اعتقادهم وتخلقوا بأخلاقهم كل ذلك لمجرد التقليد والتشبيه بالتابعين والطباع مجبولة على التشبيه لا سيما طباع الصبيان وأهل الشباب فبهذا يعرف أن التصديق الجازم غير موقوف على البحث وتحرير الأدلة

سعادة الخلق فى أن يعتقدوا الشىء على ما هو عليه

لعلك تقول لا أنكر حصول التصديق الجازم فى قلوب العوام بهذه الأسباب ولكن ليس ذلك من المعرفة فى شىء وقد كلف الناس المعرفة الحقيقية دون اعتقاد هو من جنس الجهل الذى لا يتميز فيه الباطل عن الحق فالجواب أن هذا غلط ممن ذهب إليه بل سعادة الخلق فى أن يعتقدوا الشىء على ما هو عليه اعتقادا جازما لتنتقش قلوبهم بالصورة الموافقة لحقيقة الحق حتى إذا ماتوا وانكشف لهم الغطاء فشاهدوا الأمور على ما اعتقدوها لم يفتضحوا ولم يحترقوا بنار الخزى والخجلة ولا بنار جهنم ثانيا وصورة الحق إذا انتقش بها قلبه فلا نظر إلى السبب المفيد له أهو دليل حقيقى أو رسمى أو إقناعى أو قبول بحسن الاعتقاد فى قائله أو قبول لمجرد التقليد من غير سبب فليس المطلوب الدليل المفيد بل الفائدة وهى حقيقة الحق على ما هي عليه فمن اعتقد حقيقة الحق فى الله وفى كتبه ورسله واليوم الآخر على ما هو عليه فهو سعيد وإن لم يكن ذلك بدليل محرر كلامى ولم يكلف الله عباده إلا ذلك وذلك معلوم على القطع بجملة أخبار متواترة من رسول الله ﷺ فى موارد الأعراب عليه وعرضه الإيمان عليهم وقبولهم ذلك وانصرافهم إلى رعاية الإبل والمواشى من غير تكليفه إياهم التفكر فى المعجزة ووجه دلالته والتفكر فى حدوث العالم وإثبات الصانع وفى أدلة الوحدانية وسائر الصفات بل الأكثر من أجلاف العرب لو كلفوا ذلك لم يفهموه ولم يدركوه بعد طول المدة بل كان الواحد منهم يحلفه ويقول والله آلله أرسلك رسولا فيقول والله الله أرسلنى رسولا وكان يصدقه بيمينه وينصرف ويقول الآخر إذا قدم عليه ونظر إليه والله ما هذا وجه كذاب وأمثال ذلك مما لا يحصى بل كان يسلم فى غزوة واحدة فى عصره وعصر

أصحابه آلاف لا يفهم الأكثرون منهم أدلة الكلام ومن كان يفهمه يحتاج إلى أن يترك صناعته ويختلف إلى معلم مدة مديدة ولم ينقل قط شيء من ذلك فعلم علما ضروريا أن الله تعالى لم يكلف الخلق إلا الإيمان والتصديق الجازم بما قاله كيفما حصل التصديق.

نعم: لا ينكر أن للعارف درجة على المقلد ولكن المقلد فى الحق مؤمن كما أن العارف مؤمن فإن قلت فبم يميز المقلدين نفسه وبين اليهود المقلد؟ قلنا المقلد لا يعرف التقليد ولا يعرف أنه مقلد بل يعتقد فى نفسه أنه محق عارف ولا يشك فى معتقده ولا يحتاج مع نفسه إلى التميز لقطعه بأن خصمه مبطل وهو محق أو لعله أيضا يستظهر بقرائن وأدلة ظاهرة وان كانت غير قوية يرى نفسه مخصوصاً بها ومميزا بسببها عن خصومه فإن كان اليهودى يعتقد فى نفسه مثل ذلك فلا يشوش ذلك على المحق اعتقاده كما أن العارف الناظر يزعم أنه يميز نفسه عن اليهودى بالدليل واليهودى المتكلم الناظر أيضا يزعم أنه مميز عنه بالدليل ودعواه ذلك لا يشكك الناظر العارف وكذلك المقلد القاطع ويكفيه فى الإيمان أن لا يشككه فى اعتقاده معارضة المبطل كلامه بكلامه فهل رأيت عاميا قط قد اغتم وحزن من حيث يعسر عليه الفرق بين تقليده وتقليد اليهودى بل لا يخطر ذلك ببال العوام وإن خطر ببالهم وشوفهوا به ضحكوا من قائله وقالوا ما هذا الهذيان؟ وكان بين الحق والباطل مساواة حتى يحتاج إلى فرق فارق تبينا أنه على الباطل وأنى على الحق وأنا متيقن لذلك غير شاك فيه فكيف أطلب الفرق حيث يكون الفرق معلوما قطعا من غير طلب؟ فهذه حالة المقلدين الموقنين وهذا إشكال لا يقع لليهودى المبطل لقطعه مذهبه مع نفسه فكيف يقع للمسلم المقلد الذى وافق اعتقاده ما هو الحق عند الله تعالى فظهر بهذا على القطع أن اعتقاداتهم جازمة وأن الشرع لم يكلفهم إلا ذلك فإن قيل فان فرضنا عاميا مجادلا لجوجاليس يقلد وليس يقنعه آدلة القرآن ولا الأقاويل الجلية المفرقة السابقة إلى الأفهام فماذا تصنع به؟

قلنا: هذا مريض مال طبعه عن صحة الفطرة وسلامة الخلقة الأصلية فينظر في شمائله فإن وجدنا اللجاج والجدل غالبا على طبعه لم نجادله وطهرنا وجه الأرض عنه إن كان يجاحدنا في أصل من أصول الإيمان وان توسمنا فيه بالفراسة مخائل الرشد والقبول إن جاوزنا به من الكلام الظاهر إلى توفيق في الأدلة عالجناه بما قدرنا عليه من ذلك وداوينا بالجدال المر والبرهان الحلو وبالجملة فنجتهد أن نجادله بالأحسن كما أمر الله تعالى ورخصتنا في القدر من المداواة لا تدل على فتح باب الكلام مع الكافة فإن الأدوية تستعمل في حق المرضى وهم الأقلون وما يعالج به المريض بحكم الضرورة يجب أن يوقى عنه الصحيح والفطرة الصحيحة الأصلية معدة لقبول الإيمان دون المجادلة وتحرير حقائق الادلة وليس الضرر في استعمال الدواء مع الأصحاء بأقل من الضرر في إهمال المداواة مع المرضى فليوضع كل شيء بوضعه كما أمر الله تعالى به نبيه حيث قال ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[1] والمدعى بالحكمة إلى الحق قوم وبالموعظة الحسنة قوم آخرون على ما فصلنا أقسامهم في كتاب القسطاس المستقيم فلا نطول بإعادته.

(تم والحمد لله أولا وآخراً)

١- سورة النحل آية (١٢٥)

فهرست الكتاب